مرفوض ومحبوب

من إسماعيل الى أمل للشرق الأوسط

الجزء الأول

لورنس دي ويت

ISBN 9789083221908
NUR 342, 320

الطبعة الأولى

"مرفوض ومحبوب"، ترجمت من الرواية التي تحمل عنوان
'Rejected and Loved'.

© لورنس دي ويت، 2014
الترجمة العربية: 2023
www.godlovesishmael.com
الناشر TransConnect

تصميم الغلاف: Advanced Media, Veendam, the Netherlands
ترجمة: كارولين فاخوري

جميع الآيات الكتابية تم اقتباسها من الكتاب المقدس، الترجمة العربية المبسطة، ما لم يرد غير ذلك.
Copyright © 2009, 2016 by Bible League International

جميع الحقوق محفوظة. لا يُسمَح بإعادة انتاج أو توزيع أو نسخ أي جزء من هذا المؤلف بأي طريقة بما في ذلك التصوير أو التسجيل أو أية أساليب الكترونية أو تقنية بدون الحصول على إذن الناشر الخطي مُسبَقاً، باستثناء الاقتباسات المقتضبة الواردة في المراجع النقدية وبعض الاستخدامات غير التجارية الأخرى المحددة والمسموح بها ضمن قانون الملكية الفكرية. لطلب الإذن الرجاء مراسلة الناشر على العنوان التالي مع ذكر «عناية: منسق الأذونات» في خانة العنوان info@godlovesishmael.com.

جدول المحتويات

	مقدمة	٤
	كلمة شكر	٦
	الإهداء	٧
	البداية لشعب عظيم	٨
١	كلمة الله	٢١
٢	عظمة الله مرئية	٨١
٣	مُفاجأة مؤلمة	٣٢
٤	دروس حكيمة	٩٢
٥	وليمة حزينة	٣٣
٦	المياه الحية	٨٣
٧	عمّانوئيل – الله معنا	٣٤
٨	المصالحة بين الآباء	٨٤
٩	حل الأحجية	٣٥
٠١	مشورة حكيمة	٩٥
١١	مشاكل عائلية	٥٦
	مراجعة	١٧

مقدمة

بعد إغلاق حاجز مرور القطار، قال كَرَم قوله المعتاد «حوّل الإشارة إلى الأخضر»، فأمد يدي نحو المقبض اللماع متبعاً التعليمات وأمسك بمقبس الأمان وأحرك الذراع الثقيل نحو الأسفل. فتقوم السلسلة بشده ومن ثم تتحرك ذراع الضوء الأحمر على بُعد نصف ميل إلى وضعية «الأمان». وهكذا، امضيت العديد من الأمسيات في غرفة تحكم محطة القطار مع المقيم التركي. بعد انقضاء عدة شهور في بيتنا، أحضر كَرَم زوجته وأبناءه من تركيا، وتصادقت فوراً مع ابنه البكر الذي كان في مثل عمري. استمتعت بالترحاب وكرم الضيافة ودفء هذه العائلة المسلمة وقضيت الكثير من ساعات الفرح في البيت الذي خصصته شركة محطة القطار الهولندية لموظفها المهاجر.

انتقلت بعد سنوات إلى الشرق الأوسط وانغمست في الثقافة العربية. في البداية شعرت بعدم الأمان لكن كلما تعرفت أكثر على جيراني وزملائي كلما استمتعت بضيافتهم وحياتهم الاجتماعية. فتجربتي لم تتوافق مع الصورة التي كنت قد استقيتها من الكتاب المقدس، إذ كنت مطلعاً على قصة مقابلة هاجر مع ملاك الرب الواردة في سفر التكوين الأصحاح ١٦ حيث أخبر الملاك هاجر أن الجنين في رحمها سيكون عنيداً مثل حمار وحشي وفي نزاع دائم مع الآخرين. أفلم يربط مفسِّرو الكتاب المقدس هذا ليكون إشارة لعدائية بدو العرب في الشرق الأوسط؟!

في أحد الأيام، قرأت القصة مرة أخرى بتأني وتساءلت كيف فهمت هاجر رسالة الله. وفاجأني اكتشاف يحمل في سياقه ان هناك رسالة من الله وإعلان لبركات عظيمة لإسماعيل.

حثّني هذا على البحث في الكتاب المقدس عن إسماعيل ونسله، واكتشفت نتيجة لذلك بعض المفاهيم الملفتة والمثيرة للفضول، فمثلاً لم يعد هنالك ذكر للإسماعيليين بعد نقطة معينة وظهر مكانهم العرب.
وأكدت الدراسة المتعمقة بأن مصطلح «العرب» يشير إلى نسل إسماعيل، ليس في الكتاب المقدس فحسب بل أيضاً في سجلاتٍ تاريخية أخرى. وعلى مر الأزمنة، تم ضم المزيد من الشعوب إليهم بحيث يتعذر اليوم تحديد أي العرب هم من نسل إسماعيل حقاً وأيهم ليس منهم.
أثناء دراسة جميع النبوات عن الأمم المحيطة بإسرائيل، بدأت برؤية نمط يخص العرب، وكنتيجة، توضحت لي بعض التعابير النبوية الواردة في العهد القديم. كما لاحظت أن العديد من هذه الوعود لم تتّحقق بعد.
شعرت بالحماس الشديد مع التردد في ذات الوقت، إذ لم أرد ادعاء أمور لم يلاحظها أحد آخر من قبل بشكل سذج. ومن ثم ذكر بعض الأصدقاء الآخرين مثل العلامة

اللبناني طوني معلوف الذي اكتشف نفس الأمور. في الواقع، في ١٨٤٧ كتب الكاتب اليهودي إسحق دا كوستا قصيدة يتطلع من خلالها لتحقيق هذه الوعود.

ألا تشكّل هذه رسالة هامة للعرب ولكل مَن يعتبر أبي إسماعيل، إبراهيم، أباً روحياً لهم؟ ما الذي سيحدث لو أدرك كل المسيحيين أن الله يحب المسلمين بقدر محبته لهم؟ ماذا لو اكتشف المسلمون مدى أهميتهم في عيني الله وأنه لا يزال لديه خطة فريدة لهم تتحقق عندما يضعون إيمانهم وثقتهم في يسوع المسيح؟ تخيل أن اليهود يشهدون عن محبة الله ورحمته ويلمسون قلوب جيرانهم الذين لطالما عاشوا معهم في نزاع. قد تواجه البشرية مستقبلاً رائعاً. سيعم السلام الحقيقي في الشرق الأوسط. وسيرى الجميع محبة الله كلي الحكمة، ومنهم أولئك الذين لا يؤمنون بأن الله يهتم بكل الآلام في العالم.
دفعني هذا لكتابة اكتشافاتي ومنظوري بطريقة يسهل فهمها. وانتهت بي مدوناتي بقصة تجمع الواقع بالخيال. فكل فصل فيها يشير إلى مقطع من الكتاب المقدس بُني عليه. وهكذا، يمكن للقارئ التدقيق فيما هو خيالي وما هو كتابي بكل سهولة. كما أوردت سلسلة الأنساب والأزمنة للإشارة إلى الشخصيات التاريخية مقابل الشخصيات الوهمية. وأخيراً، أضفت بعض المراجع لموقع الكتروني يحوي العديد من المقالات والدراسات المتعمقة حول مواضيع هامة أو جدلية.

أرجو وأصلي أن تقرأ هذا الكتاب بذهن منفتح، وأشجعك أن تدرس المقاطع الكتابية كما لو كنت تقرأها للمرة الأولى. اسمح لله ان يتكلم إليك من خلال كلمته. سيرشدك الروح القدس فيما يخص خطته لنسل إسماعيل والدور الذي ربما تؤديه لتحقيق خطته.
أتفق من كل قلبي مع كلمات إسحق دا كوستا الذي كتب «هل ستكون هذه الأمور هكذا حقاً؟ أنت تسأل وأنا أجيب «ربما ليس بهذه الترجمة تماماً وربما بترتيب آخر، ربما ليس منفصلين بل متوافقين أو ربما الواحد بعد الآخر ويجريان معاً. لكن من الممكن أيضاً توقع المزيد من الأمور المجيدة أكثر من تلك التي تم تسجيلها هنا من الكتاب المقدس.» [١]

أتطلع قدماً لكشف خطة الله إلى جانب كل الذين يدعون إبراهيم أباً روحياً لهم من خلال إسماعيل، العرب والمسلمين على حد سواء، وتأثير هذا على اليهود، شعبه المختار. دعونا نحبهم بمحبة الله، ليتمجد اسمه.

لورنس دي وِيت

١ مترجم من- *MESSIAANSE JODEN. VERGETEN EERSTELINGEN, Serie: Mono-grafieën van Messiasbelijdende Joden. ISAAC DA COSTA,* Dr. J. Haitsma. Uitgeverij J.J. Groen en Zoon, Leiden, 1993

كلمة شكر

أول كل شيء، أشكر الله الآب السماوي لفتح عيناي على محبته العظيمة للعرب كما سُجِّلت في الكتاب المقدس. لقد ألهمني لكتابة كل هذه القصص في هذا الكتاب. عندما كنت أتساءل إن كان تقديم كتيب تعليمي على شكل قصة أمراً حكيماً، قادني إلى استخلاص ضرورة اتباع مثاله. فكتابه، الكتاب المقدس، لا يتبع أية قواعد لأسلوب أدبي معين أيضاً.

أريد أيضاً أن أشكر كل من ساندني خلال السنتين اللتين أمضيتهما في العمل على هذا الكتاب. وأخص بالذكر زوجتي التي شجعتني دائماً بالإضافة إلى كل مَن كان يفكر معي وضحى بالعديد من ساعات وقت فراغهم في القراءة والتدقيق وإعطاء التغذية المرجعية. أريد أن أشكر أيضاً الرجال والنساء العرب الذي ساعدوني بصبر لصياغة الفكر الإسلامي بطريقة لائقة. وأخيراً، لم تكن هذه النسخة العربية لتصدر لولا جهود المترجم المثابرة.

الإهداء

أهدي هذا الكتاب لكل أصدقائي العرب الذي قبلوني وقدموا لي المحبة والتقدير للعالم العربي وثقافته.

كما أرغب بإهداء هذا الكتاب إلى كل الذين يعتبرون أنفسهم أبناء وبنات إسماعيل. يعلم الله ألمكم الصامت وحزنكم بسبب الرفض الذي اختبرتموه بطرق عديدة، خاصة في الغرب ومنه. عند الله رسالة رجاء لك: أنت ذو قيمة ومحبوب. ولله خطة خاصة جداً لحياتك. ضع ثقتك في المسيا ودعه يستخدمك لتكون بركة لكثيرين.

الجزء الأول

البداية لشعب عظيم

حول رعاية الله لحياة إسماعيل،

أبو اثني عشر من الاسباط في الشرق الأوسط

«الله قد سمع محنتكِ» تكوين ١٦: ١١

أولاد وأحفاد النبي إبراهيم

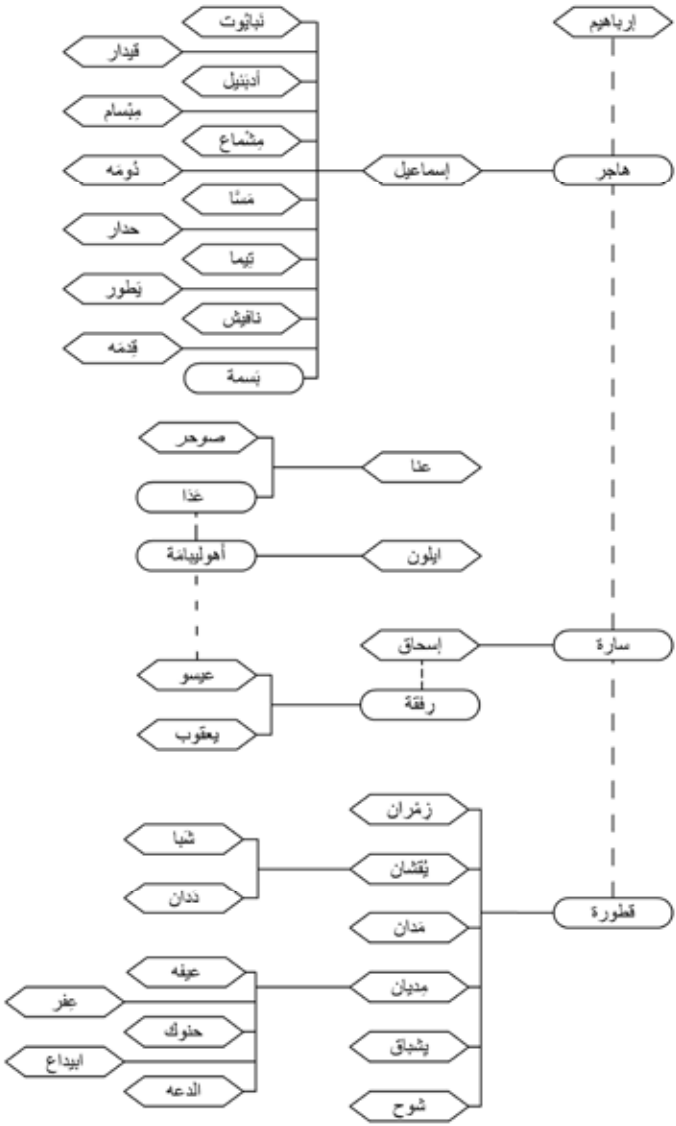

معاني الأشكال

إبراهيم	شخص تاريخي ذكر	- - - - - - علاقة زواج
هاجر	شخص تاريخي انثى	———— نسل
صوحر	شخص خيالي	

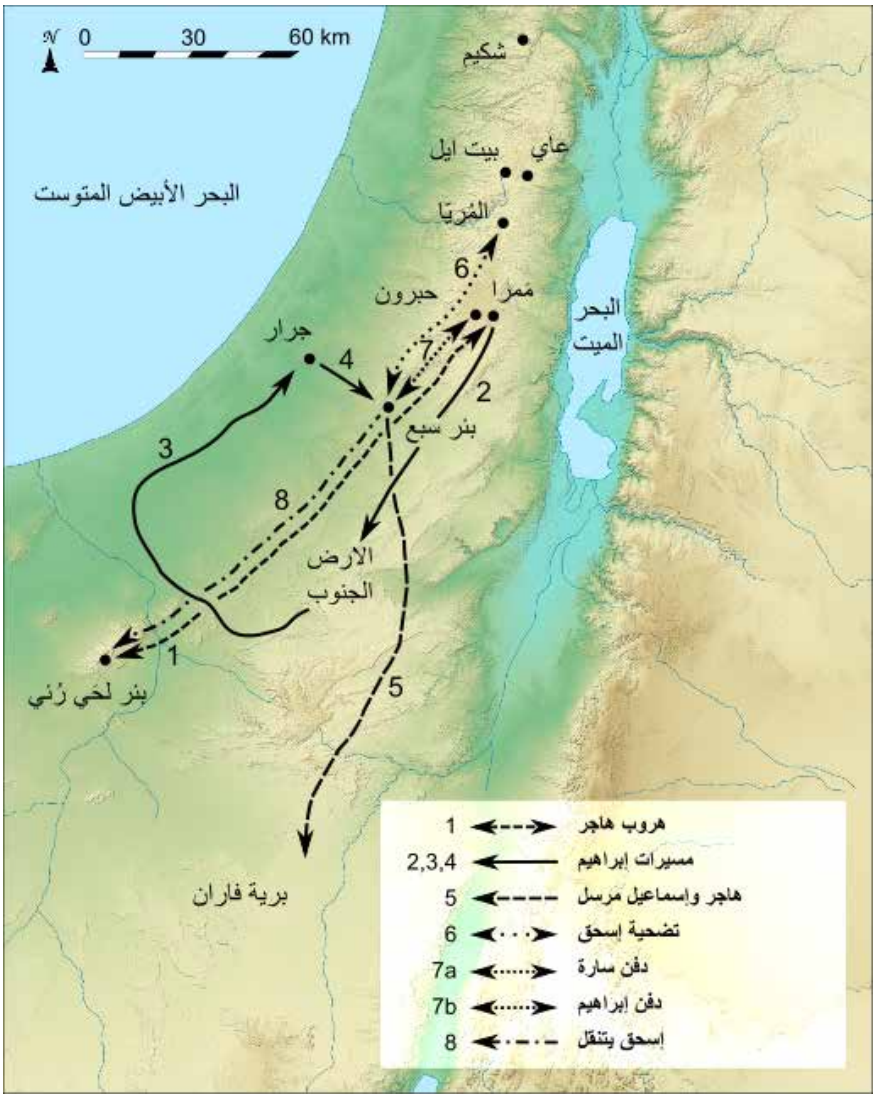

بعض المواقع المهمة في حياة إبراهيم

لفيلم متحرك عن مسيرة إبراهيم اذهب إلى الرابط التالي:
www.godlovesishmael.com/massira

يوم من الأيام, قبل ٤٠٠٠ سنة ...

١ كلمة الله

الجبال العارية تطوّق الخرابة المُقفِرة من كل جانب، قممها الوعرة نحتتها العواصف الرملية الكثيرة، شجيراتٌ مبعثرة هنا وهناك تطل برؤوسها الضئيلة بين الشقوق الصخرية، أشجار الصمغ مبعثرة بين الصخور الضخمة المترامية في أرجاء الوادي. تراب الصحراء لوّن أوراق الأشجار باللون البني فبدت خالية من كل مظاهر الحياة كونها لا تغتسل إلا بعد تساقط زخات المطر النادرة لتظهر نضارتها ولونها الأخضر لبضعة أيام معدودات.

في أيام كتلك، يتدفّق ماء المطر نزولاً على سفح الجبل متحوِّلاً بسرعة فائقة إلى سَيْل جارف، وما هي إلا سويعات قليلة حتى يختفي فجأة كما ظهر.

ظهر القمر مرتين منذ انتهاء موسم الشتاء مما جعل الوادي يبدو قاحلاً تؤكد حالته جيفة غزال جافة قابعة في مكانها بلا حركة.

آثار القوافل رسمت الطريق المتعرّج الذي يصل أرض كنعان بمصر، وهو طريق هادئ جداً لا يُسمَع فيه سوى حفيف نسمات الرياح الدافئة. وفوق المشهد الكئيب يحوم نسر في السماء الزرقاء الصافية، باحثاً عن فريسة يقنصها, عدا عن ذلك النسر لا يوجد أي أثر للحياة في هذا الحر الخانق، حيث انسحب كل بشر وحيوان إلى الظلال القليلة للاحتماء من قسوة الشمس الحارقة في ذلك الوقت الخانق من النهار.

في هذه البرية القاحلة، ظهرت هيئة شخص مُتأزّر بالسواد، على شكل كمية من الظلال المنعكسة على التشكيلات الصخرية المحيطة توحي بأن الجسد يعود لامرأة تشق طريقها بصعوبة بالغة عبر الوادي. ذقنها مرتمٍ على صدرها، وعيناها ذابلتان ويبدو عليها الإرهاق الشديد، فيما تغطي وجهها ببرقعها المليء بالتراب لتحمي نفسها من الغبار الناعم.

كيف يمكن أن تكون هناك امرأة وحيدة، بلا رفيق على طريق التجارة, الذي لا يرتحل عليه عادة إلا الرجال بقوافلهم المكوّنة من الجِمال والحمير..!؟ لا يبدو أنها تحمل أي متاع ولا حتى قطرات ماء، ليس معها سوى الثياب التي تغطي جسدها النحيل. ليس معها أحد ليعتني بها أو يحميها. تسير لوحدها في تلك الأرض الوعرة . في طريقها إلى أين ؟ اين يمكن أن تكون وجهتها؟

تتنافس داخل قلبها مشاعر الارتياح: **أنا حرّة على الأقل** تجادل نفسها: **لن توبِّخني سيدتي أو تضربني ثانية فهناك في البيت سيحميني أبي وإخوتي.** تحسب في ذهنها عدد الأيام التي أمضتها في المسير وقدّرت أنها لا بد قد انقضت أربعة أيام: **لو أن السيد يرغب بعودتي لكان عبيده يحملونني الآن على ظهور جِمالهم مُسرِعة الخُطى.**

تهدر معدتها من وخز الجوع، فيما تتساءل عما إذا كانت ستنجح في اجتياز كل المسافة في طريق عودتها إلى البيت. بالكاد وجدت شيئاً تأكله منذ هروبها من سيّدتها ولا زال أمامها الكثير من أيام المسير الشاقّ. لكن في هذه اللحظة كان العطش هو الذي يعذِّبها، فهي تشعر بجفاف لسانها، إذ أن آخر مرة حصلت فيها على رشفة ماء كانت قبل شروق الشمس بقليل: **لا بد وأن أكون قريبة من بئراً ما، لكن أين عساه يكون؟** كل جبل تعدّته بدا

مشابهاً للجبل الذي سبقه، فهي لم تطرق هذه الطريق سوى مرة واحدة من قبل، لكن ذلك حدث منذ سنوات عديدة مضت، عندما ارتحلت مع سيدها من مصر إلى أرض كنعان. وبينما هي تمشي مُجهَدة في مسيرها غمرتها الذكريات النابعة من رحلة الماضي تلك. يا لها من بهجة تلك التي أحسّت بها! حيث غمرها شعور رائع لتحررها من ذلك السيد القاسي في مصر، الذي اعتاد أن يضربها ويحرمها من الطعام كعقاب لها إن صدر منها أدنى خطأ. لطالما تساءلت عن مدى قدرتها على احتمال الإساءة كما فعل والداها، لكن سيدها الجديد بلكنته الأجنبية المُضحِكة كان مختلفاً جداً؛ فقد كان لطيفاً، لم يضربها قط وبالكاد غضب يوماً من أحد عبيده، بل إنه كان يعامل الخِراف والحمير باحترام وكأنهم أعزاء عنده.

في بداية الأمر شعرت بالحنين إلى البيت، فقد تاقت لرؤية والديها وإخوتها ، لكن سرعان ما بدأ العبيد في بيت سيدها الجديد بمعاملتها كأخت لهم، إذ كان السيد يمنع بشدة أن يُساء معاملة أي من الجواري، فكانت تشعر بأمان حقيقي هناك.

أخيراً، بعد عدة منعطفات على الطريق الترابي لاحظت المرأة مجموعة من أشجار النخيل في الأفق، الأوراق الكبيرة ذات اللون الأخضر الغامق، توحي بوجود نبع ماء كبير، ملاذٌ في الصحراء يلتجئ إليه المرتحلون للارتواء والراحة وقضاء الليل في بعض الأحيان.

انفرجت أساريرها أكثر إزاء الهدوء الذي كان يعم في المكان، ففي الواحة الأخيرة التي وقفت عندها، بدأ الرجال بمضايقتها حالما أسندت رأسها لتنال قسطاً من النوم أخافوها كثيراً.

كان سيدها رجلاً لطيفاً لكن المقيمين في تلك الأرض كانوا أشراراً لا تستطيع وضع ثقتها في أيٍّ منهم. لطالما سمعت قصصاً عديدة عن الأخطار التي تحل على المتجوّلين على هذه الطرق، خاصة أنها امرأة ضعيفة تسافر بلا رفيق، والصراخ لطلب المساعدة لن يجدي نفعاً، فلا أحد يعرفها أو يهتم بأمرها، فهي ليست سوى جارية لا أهمية لها، وإنسانة بلا أية قيمة.

أدركت شيئاً، عند البئر الأخيرة، عندما أمسك أحد الرجال بذراعها وبدأ بشدِّها للإساءة إليها، ولكن فجأة ظهر أسد من حيث لا تدري، فإضطر الرجال إلى تركها وانشغلوا بالدفاع عن حمير القافلة من هجوم الحيوان المفترس. لقد أنقذ ذلك الأسد حياتها!

غمرتها الراحة عندما رأت دلواً بجانب البئر إذ أصبح بإمكانها اجتراف ما يكفي من الماء لتطفئ ظمأها برغم منسوب الماء المتدني في مثل هذا الوقت من العام، كما يمكنها غسل التراب عن وجهها ويديها. لقد أعطاها انسياب الماء البارد على جلدها الساخن شعوراً منعشاً، مما جعلها تدرك الآن مدى إجهادها. في ظلال أشجار النخيل الضخمة كان مكاناً جيداً للجلوس وطلب الراحة لبرهة وبينما أغلقت عينيها سمحت لأفكارها أن تتوه ثانية.

منذ بضعة شهور كانت حياتها رائعة، إذ تم اختيارها لتكون محظية السيد وكان ذلك أروع يوم في حياتها. فقد كان هذا أفضل مستقبل يمكن أن تحظى به جارية مثلها، فإن حظيت بأن تحمل طفلاً، وكان هذا الطفل ذكراً فإنه سيرث ثروة السيد، ولن تبقى هي جارية، بل سيتم الاعتناء بها في شيخوختها. بالطبع كان سيتعين عليها التخلّي عن ابنها لسيّدتها، لأن ساراي كانت عاقراً. لكن سيدها، أبو ابنها، سيسدد كل احتياجاتها، وحتى إن مات سيدها فإن ابنها سيعتني بها بكل تأكيد. يا له من مستقبل مشرق!

وفعلاً، حملت وتحققت أحلامها، وكانت مبتهجة جداً لدرجة أنها أخبرت كل من كان راغباً بسماع أخبارها. للأسف، مع تقدُّم أيام حملها بدأت المشاكل بالظهور فهي لم تَعُد جارية لكن أفكار سيدتها كانت تتخذ مساراً آخر، إذ وكّلتها بتأدية أحط الأعمال وأكثرها مذلّة، وكأن شيئاً لم يتغير.

حسناً، قرّرت أن لا تحتمل أكثر، كان هناك الكثير من العبيد الآخرين ليقوموا بعملها، لكنها ترفض أن تُعامل كواحدة منهم فهي الآن محظية السيد، الثانية بعد ساراي! ومع هذا المركز تأتي امتيازات معيّنة وهي مصممة للتمتع بحياتها قليلاً، تماماً مثل مالكيها الأثرياء. في البداية دافع عنها السيد، لكنه كان ضعيفاً تجاه زوجته الأولى، فانتهى به المطاف بالتسليم بلا مقاومة، مصرِّحاً: "زوجتي ساراي هي سيّدتك." وبما أن كلمة السيد هي القانون فقد عنى ذلك أن تفعل ساراي بها ما تشاء، ومنذ ذلك اليوم انقلبت حياتها رأساً على عقب إلى أن خرجت الأمور عن السيطرة تماماً. بعد فترة من الزمن قرّرت أن تعود إلى بيت والديها في مصر، فأي شيء سيكون أفضل من هذا الإذلال اليومي.

"يا هاجر!"

رفعت المرأة رأسها متنّبهة على صوت الرجل العميق إذ لم يتراءى لسمعها أن أحداً يقترب. مَن هذا؟ كيف يعرف اسمي؟ ماذا يريد؟ نظرت إلى الغريب ولم تعرف هويّته، كما أنها لم تذكر سماع صوته من قبل. كانت النظرة في عينيه البنيتين الصافيتين وديّة لكن ثاقبة وكأنه عرف مشاعرها تماماً وكل ما يدور في خلدها.

"يا جارية ساراي، من أين جئتِ؟"[١]

كيف يعرف هذا؟ خافت هاجر وأرادت أن تهرب منه، إذ لا يجدر بها وضع ثقتها بالرجال الغرباء، ولكن في ذات الوقت شعرت بالانفعال الشديد، إذ بدا هذا الرجل مختلفاً تماماً، يشعُّ منه إحساس بالسلام يُذكّرها بسيّدها.

أجابت سؤاله بعفوية، وبدون أي تردّد روَت له قصتها كاملة، من بدايتها إلى نهايتها. أخبرته عن المكانة التي نالتها، وعن التوتر المتصاعد بينها وبين ساراي. «صرخت ساراي في وجهي مرة تلو المرة: 'ستفعلين ما أقوله لك تماماً، أنتِ جاريتي!' في كل مرة كررت فيها تلك الكلمات كان الألم يخترق عُمقاً جديداً في أحشائي. لطالما كنتُ جارية أمينة، لكنني الآن انتظر مولوداً وهي تصرّ على تكليفي بالأعمال المنزلية الشاقة، كما أنها تسيء معاملتي بإستمرار."

بينما سكبت هاجر قلبها وشاركت الغريب تفاصيل تجربتها المؤلمة، توتّرت عضلاتها وتورّدت وجنتاها بالغضب المتجدّد. "ثم وقع حادث: كنتُ متعَبة جداً، وكان الإبريق ثقيلاً فانزلق من يدي وانسكب الماء المغليّ من جانبه على رجل ساراي فاحترقت." وبينما سردت هاجر أحداث ذلك اليوم، أدركت أن ذلك لم يكن حادثاً محضاً، فلطالما تمنّت في أعماق قلبها أن يحدث أمر مروّع لساراي، وفي خضم غضبها وشعورها بالإحباط حملت هاجر الإبريق الساخن بخشونة. «استشاطت ساراي من الغضب! عنّفتني واهتاجت عليّ وثم ...» أشارت هاجر إلى خدّها الأيسر وعنقها، كان جلدها قرمزي اللون ومليئاً بالتقرّحات. وانفجرت في البكاء وهي تشعر ثانية بألم الرفض.

---

١ تكوين ١٦: ٧

نظر إليها الغريب بتفّهم وتعاطف شديد وكأنه يشاركها ألمها. فقالت بدون تفكير وهي تنشج: "لماذا رمت ساراي الماء الحارق على وجهي؟ لم أؤذها عن قصد! لم أعد أحتمل فهربت."

تكلّم الرجل ثانية وسألها بهدوء دون أن يشجّعها أو يدينها: "إلى أين تمضين يا هاجر؟»

"أنا في طريقي إلى بيت والداي في مصر. إنهم عبيد لدى رجل ثري، كنت أعمل لديه أيضاً في السابق، ربما يقبل بعودتي وإن لم يفعل فسأجد مكاناً آخر لأعمل فيه."

استمع إليها الغريب بانتباه وعندما فرغت من الحديث قال لها: "عودي إلى سيدتك."

ماذا؟ شعرت بالاشمئزاز لا يمكن أن تكون جادًا فيما تقول! - لكنه كان كذلك - إذ أكمل قائلاً: "اخضعي لها."[٢]

مجرد الفكرة بثّت الرعب في قلبها. لا يمكنك أن تكون جاداً فيما تقول! لكنه كان جاداً جداً. أعود إلى تلك المرأة المريعة؟ أبداً! فعلت كل ما باستطاعتها لتمالك أعصابها واحتواء غضبها، صارّة على أسنانها ومُطبِقةً قبضة يديها، ومشيحةً بوجهها بعيداً عنه لتفادي نظرته المتحدّية، مقاومة رغبتها في الصراخ: "هل فقدتَ عقلك؟" لكن كلماته كانت صادرة بسلطان لم تجرؤ على معارضته. بعد أن نفذت كلماته إليها جازفت هاجز بإلقاء نظرة خاطفة إلى وجهه، وشعرت أن في عينيه سلام لا يمكنها تفسيره أزال كل الغضب والمرارة من قلبها. هل يمكن ان يكون هذا أفضل شيء لها ولجنينها؟

"سأكثِّر من نَسْلك تكثيراً!" أكمل الغريب قوله: "فلا يُعَدّون لكثرتهم."[٣]

بدا الارتباك جليّاً على هاجر ما الذي يقوله؟ كيف يمكنه أن يفعل شيئاً كهذا؟ هل يعرض عليّ الزواج؟ استرخت معالم وجهها وكبتت ابتسامة كادت ترتسم على وجهها، ليس لمجرّد أن وجهها المحروق لا زال يؤلمها بشدة بل لأنها لم تشأ أن تسخر منه. ولم تتمالك نفسها من التفكير يا له من رجل غريب الأطوار! لم يسعها سوى التفكير بذلك ولتتأكد من أنها لا تحلم أخذَت نفَساً عميقاً استنشقت فيه الهواء المنعش ورائحة العشب الأخضر والنباتات العابقة برائحة الربيع فأدركت أن هذا ليس حلماً! هذا واقع حقيقي!

في هذه الأثناء، كان الرجل لا يزال مستمراً بالحديث بثقة بالغة: «ها أنتِ حُبلى، وستلدين ابناً»[٤]

لكن .. كيف يعرف أنه سيكون لي ولد؟ أليس من الوارد أن تكون ابنة؟ لكن في تلك اللحظة غلب ابتهاجها على ارتباكها. رائع! ابن! أن يكون ابن هو أعظم أمنية لكل امرأة، وبِكْرُها سيكون ولداً! الأمر أعظم من أن يُصَدَّق. لقد أرادت ان ترقص فرحاً، لكن عندها تسرّب الشك إلى قلبها فهل يمكنها أن تثق بكلمات هذا الغريب؟ لكنه عرف اسمي وجارية مَن أكون. واستمرت بالإصغاء إليه بلهفة لأنه لم يكن قد أنهى كلامه بعد.

"سيكون اسمه إسماعيل, لأن الله قد سمع مِحنَتَكِ."[٥]

بدأت تراود هاجر القصص التي اعتاد سيدها أبرام سردها على مسامعها، قصصٌ عن الله وأمره له بالرحيل إلى مكان غير معروف، وكيف أطاعه وكيفية اعتناء هذا الإله به. اعتادت أن تراقب أبرام وهو يبني المذابح لهذا الإله. لم تكن هاجر تعرف سوى آلهة المصريين في ديارها ولأنهم –هؤلاء الآلهة- كانوا ذوات نفوذ كبير وبقيت وفيّة لهم.

---

٢ تكوين ١٦: ٩
٣ تكوين ١٦: ١٠
٤ تكوين ١٦: ١١
٥ تكوين ١٦: ١١

لكن كلمات هذا الرجل تشبه أسلوب أبرام في الحديث إلى حد كبير، فهذا الغريب يتكلّم بذات التوكيد المُقنِع. حتى أثناء طفولتها سمعَت كل ذلك مراراً. وأليس هذا ما كانت تقوله لها ساراي مؤخراً؟

هل إله أبرام مأخوذٌ بي إذن؟ أنا الجارية؟ هل سمع حقاً عن معاناتي، عن الصعوبات التي أواجهها مع سيدتي؟ هذا ما يقوله الغريب. وثم، لا يهل من اسم جميل، لم تستطع هاجر أن تفكّر باسم أكثر ملاءمة لابنها من إسماعيل أي «الله يسمع.» هل يُعقَل أن الله سمع دعاءها الصامت؟

لطالما تمنّت في قلبها أن تلتقي بإله أبرام ثم اتضح لها فجأة: هذا هو! إنها تلتقي بإله أبرام وجهاً لوجه وللفور أدركت كم كان سهلاً عليها أن تشاركه أعباءها وكيف اكتسب مَحضَره الرقيق ثقتها وأعاد لها شعورها بالأمان التام.

لم يكن الرجل قد أكمل كلامه بعد: "سيهيم ابنك كحمار وحشي وستكون يده على جميع المحيطين به، ويد المحيطين به عليه، وسينصب خيامه في مواجهة إخوته."[٦]

استذكرت هاجر في ذهنها صور الحمير الوحشية، التي لطالما راتها بجانب آبار المياه، وكم تمنّت أن تكون حرّة مثلهم. كان أبرام رجلاً ثرياً ويملك الكثير من الحمير لكنها لم تتمتع بالحرية للتنقل كيفما تشاء إذ كان عليها أن تطيع مالكها. شعرت هاجر بذات الشيء وكأنها كانت نوعاً من أنواع الحيوانات التي تستحق التوبيخ أو الضرب إن لم تكن مطيعة كفاية. لقد تحمّلت هذا بما فيه الكفاية ولذلك هربت من وجه استبداد ساراي

قدّم لها هذا الرجل وعداً بأن ابنها سيكون حراً. **ستكون تلك معجزة بكل تأكيد!** لطالما تاقت للحصول على وعد كهذا عندما أصبحت محظية أبرام، لكن حلمها انتهى عندما قررت الهروب والعودة إلى مسقط رأسها حيث كان والديها عبيداً وأجدادها عبيد وكل أقاربها من العبيد. ...حمار وحشي[٧] ... حرية ... صوت هذه الكلمات يدوّي في رأسها.

استدارت لتشكر الرجل على كلماته المشجّعة، لكنها لم تجد له أثراً. تسلّقت هاجر صخرة مرتفعة وحدّقت في الأفق من كل اتجاه بلا فائدة، لقد اختفى دون أن يترك أثراً، تماماً كما ظهر بشكل مفاجئ وصامت. عندها أدركت هاجر هوية هذا الغريب، فهو لم يكن رجلاً عادياً على الإطلاق لكنه كان ظهوراً لله نفسه. فالله وحده يقدر أن يعرف من هي، وهو وحده القادر على إخبارها عن حملها، وهو القادر على معرفة أنها تحمل في أحشائها ولداً.

كيف يريدني الله أن أستجيب؟ تساءلت هاجر في حيرة من أمرها ثم تذكّرت كيف كان أبرام يخاطب الله عندما كان يمشي مبتعداً عن الخيام خلال ساعات الغروب أو المساء وكيف كان يتحدّث معه بصوت عالٍ ... حينها كان المشهد بالنسبة إليها مضحكاً، إذ كان يبدو كمن يُحدِّث نفسه ولكن بالرغم من هذا، كانت هذه الصورة مألوفة اعتادت على رؤيتها. ولربما وجب عليها تجربتها. ثم وبنبرة عميقة الامتنان تمتمت بشعور من عدم الراحة: "أنت الإله البَصير الذي يراني." وفي تلك اللحظة غمر قلبها شعور من الفرح واختفى كل أثر للخوف.

بدأ الجنين في رحمها بالحركة، فأسرعت الخُطى في تلك الطريق المُغبرة التي ارتحلت عليها سابقاً، حيث لا يزال أثر خطواتها بادياً للعيان بشكل باهت. يا له من

---

٦ تكوين ١٦: ١٢

7 للمزيد من المعلومات الرجاء مراجعة الموقع التالي:
www.godlovesishmael.com/himaar

تغيير جذري ذلك الذي حل عليها، لقد رأى الله المأزق الذي كانت فيه والآن كل شيء سيكون على ما يرام.

تكوين ١٦

٢ عظمة الله مرئية

الضوء الأزرق الباهت للقمر يغطي الجبال، مُظهراً جدولاً للمياه في الأسفل، يتلوّى على هيئة أفعوان ذهبي اللون. الهدوء يعم المكان باستثناء الصرير الحاد لبضعة خفافيش وتكسُّر أعوادٍ من الحطب المتّقِّد لنيران قريبة. الجِمال والخِراف نائمة بسلام في ظلال خيام البدو.

شخص واحد فقط لا يجد للنوم سبيلاً. إنه أبرام الذي تلوّى ودار حول نفسه طوال الليل، إذ لم يسعه التوقّف عن التفكير في أحداث الأمس الذي بدأ كيوم عادي، فقد استيقظ كعادته عند بزوغ الفجر ليقوم بجولته الصباحية المُعتادة، وعند عودته لتناول طعام الإفطار كان العبيد يتراكضون هنا وهناك باضطراب، فأمرهم بالهدوء وطلب منهم تفسير سبب الضجيج التي أقامت الدنيا.

«اختفت هاجر» قالوا له: «جميع ملابسها لا تزال في الخيمة لكننا لا نجد لها سبيلاً»

فقال لهم بثقة: «حسناً، لابد أن تظهر عاجلاً أو آجلاً.»

لكن مع اقتراب الشمس من المغيب وانبعاث رائحة الخبز الطازج المخصص لوجبة المساء في جميع أرجاء المخيَّم كانت هاجر لا تزال مختفية عن الأنظار. عندها بدأ القلق يتسلل إلى قلب أبرام، فأرسل بعض العبيد للبحث في الأرجاء. لكنهم عادوا مع مغيب الشمس ... بدون هاجر. عندها روت ساراي تفاصيل الأحداث التي جرت في اليوم السابق. وفي تلك اللحظة تبيّن لأبرام أن هاجر لا بد وأن تكون قد هربت. والآن لا يمكنه التوقّف عن التفكير بذلك. وأخيراً قام من فراشه وخرج من الخيمة دون أن يصدر عنه أي صوت، وسار نحو رقعته المفضّلة. المكان الذي يشعر فيه بالسلام بعيداً عن جميع مصادر الإلهاء في المخيَّم.

وفي محاولة منه لتجنّب زعزعة الصمت السائد في ذلك الصباح المبكر، تحرّك بهدوء متجنّباً الدوس على الحجارة المتقلقِلة الموزعة في الطريق إلى قمة التل. وبفضل ضوء القمر الساطع تمكّن من رؤية المكان الذي يتجه نحوه بوضوح، وكان تسلق ذلك التل سهلاً. وبسبب عينه المُدرَّبة كان بإمكانه رؤية الوادي بوضوح شديد فيما استلقى على صخرة بارزة. **ليت هاجر تعود، فهي تحمل الابن الذي وعدني الله به.**

كان أبرام غارقاً في أفكاره، حين رفع نظره وراقب النجوم المتلألئة في السماء الخالية من الغيوم. متأملا في ذلك الوقت الذي تكلَّم الله فيه معه بجبروت، حدث ذلك منذ عدة مواسم مضت لكن كلمات الله انحفرت عميقاً في ذهنه منذ ذلك الحين.

«أُنظر إلى السماء وعُدَّ النجوم إن استطعت، هكذا سيكون نسلك»[٨]

هذا كان إعلان الله الذي صدّقه أبرام من كل قلبه. أليس هو الله الذي أخرجه من أرض أُور وأرشده إلى هذه الأرض الغريبة وسدَّد له جميع احتياجاته؟

٨ تكوين ١٥: ٥

كم سُرَّ أبرام وابتهج عندما علم أن هاجر حُبلى! لكنها اختفت الآن. فصلّى أبرام برقّة: «أيها الرب الإله، أرجوك أن تعيد هاجر، أريد أن أثق بأنك تحقِّق جميع وعودك.» وبينما رفع أبرام عينيه إلى السماء بدأ يعدّ النجوم دون أن يتعمَّد ذلك وببطء عاد السلام إلى قلبه. الله صالح وسيعمل على تحقيق ما وعد به، أبرام يعرف ذلك يقيناً.

كانت الأيام اللاحقة أطول كثيراً من المعتاد، إذ سيطرت شتّى الأفكار على ذهن أبرام. لم يتوجَّب عليه أن يقول لساراي أن بوسعها معاملة هاجر كما يحلو لها. صحيح أن ساراي هي زوجته لكن هاجر هي التي تحمل طفله. شعر بالخزي لأن خداع زوجته انطلى عليه وهو قائد العشيرة الذي لا يهاب القتال ضد الملوك، لكنه خشي من عدم رضى ساراي.

اتّضح لأبرام الآن أن هاجر إنما هربت بسبب ساراي، فتملّكته الأفكار السلبية لِمَ سترغب هاجر بالعودة؟ لقد أساءت مولاتها معاملتها. كما أن الصحراء مكان محفوف بالمخاطر، فلربما هاجمتها أحد الحيوانات المفترسة وقتلتها أو ربما أسرتها إحدى القبائل المجاورة. لكن في كل مرة سادت إحدى هذه الأفكار السوداء على ذهنه سلَّط اهتمامه على الله الذي قطع له وعداً بشكل شخصي. لا بد أن تعود هاجر فقد وعدني أن نسلي سيكون أكثر من أن يُعَدّ.

ذات مساء، كان أبرام جالساً في ظل شجرة كبيرة يستمتع بالهواء الطلق النقي وكانت الشمس تحط رحالها خلف الجبال ملوّنة السماء بتدرّج من الألوان البرتقالية والحمراء، حين لاح له أحد غلمانه يركض باتجاهه صارخاً بكلمات لم يتمكّن أبرام من تبيان ماهيتها. من الوقاحة أن يصرخ أحد في وجه السيد، حتى لو كان عن بُعد، لذا لا بد أن الرسالة التي يحملها الغلام تحمل طابع الأهمية العاجلة. أصغى أبرام لصراخ الغلام برغم انزعاجه من اضطراره إلى قطع حديثه مع بعض الرجال إلا أنه فهم أخيراً فحوى صراخ الغلام بأن هاجر عادت!

لم يصدّق أبرام أذنيه إلا أن قلبه كان يخفق بسرعة كبيرة، هل يمكن أن يكون هذا صحيحاً؟ ثم بعد لحظات ظهر خيال امرأة وحيدة عند انحناء التل فنهض أبرام من فوره وأسرع الخُطى للقائها معانقاً إياها بحرارة مرحِّباً بها بحب وارتياح.

في ذلك المساء وُجِّهت دعوة للعبيد من كبار السن إلى خيمة الاجتماع، أثناء توزيع المشروب الساخن في أكواب خزفية صغيرة تصاعد البخار وشكّل أعمدة من السحاب المرئي في ضوء النار المتّقدة أمام الخيمة، أصوات العشرات من المحادثات الدائرة في آن واحد تشير إلى الفرحة العارمة بعودة هاجر.

ازدحمت الخيمة بالوافدين. فافتتح إبرام الحديث بعد أن وجد الجميع موضعاً على الأرض للجلوس. «اليوم هو يوم احتفال، لأن الخروف الضال قد عاد إلى البيت.» ثم ركّز اهتمامه على المرأة الجالسة إلى جانبه. «نحن جميعاً سعداء بعودتك إلينا سالمة يا هاجر.» أومأ الجميع بالموافقة. «سأعطيكِ الآن الفرصة لتقصّي علينا ما الذي حدث معك.»

التقت عينا هاجر مع عيني أبرام بنظرة امتنان. وفيما استعدت للحديث ساد الصمت على المكان، باستثناء حركة بعض الحيوانات التي كانت تحاول إيجاد راحتها على العشب الممتد أمامها. كان الجميع ينتظر بفارغ الصبر سماع رواية هاجر التي أخبرتهم عن فرارها وشعورها بالخوف العارم لترحالها وحيدة، وتعرّض بعض الرجال لها، وعن الأسد الذي ظهر من العدم وشتَّت الرجال الأشرار. وأكملت حديثها بوصف لقائها المهيب مع الغريب الذي دعاها باسمها وعرف من أين جاءت.

عندما سمعها أبرام تتحدّث عن الغريب توقّف قلبه عن الخفقان **أذكر شخصاً تحدّث بهذه الطريقة، أين كان ذلك؟ مَن يمكن أن يكون هذا الغريب؟**

«قال لي أنني سأكون أماً لأمّة عظيمة» استرسلت هاجر بحديثها قبل أن تقاطعها ساراي بحدّة: «هذا ليس صحيح أبداً! أنا هي تلك الأمّ.» قاطعتها ساراي بحدّة مما رمق أبرام زوجته بهدوء حازم بنظرة لتلتزم الصمت، فقد كانت هي السبب وراء هروب هاجر، وكان أبرام سيضمن عدم حدوث ذلك ثانية. متنبِّهة لرد فعل زوجها علمت ساراي أن من الأفضل لها أن تلزم الصمت.

نسي أبرام آخر الكلام الذي قيل بسبب مقاطعة ساراي، فطلب من هاجر: «هل يمكنكِ أن تقولي ذلك ثانية؟» فكررت قولها: «من هذا الطفل ستنحدر أمة عظيمة.»

عندما سمع أبرام هذه الكلمات أدرك السبب الذي جعل هذا الرجل الغريب يبدو مألوفاً بالنسبة إليه فقد تكلّم مع هاجر بنفس الطريقة التي كلّمه فيها الله فور وصوله لأرض كنعان. لقد وعده الله بذلك الشيء تماماً: أن يصبح نسله أمّة عظيمة. واستنتج أبرام أن الذي تحدّث مع هاجر لم يكن سوى الله نفسه. **سيصدُق الله بوعده بالرغم من كل شيء.** وهتف أبرام فوراً: «مُبارَك هو الرب، الرب الإله كلي القدرة.»

عادت الحياة إلى طبيعتها في المخيّم البدوي خلال الأسابيع اللاحقة. وكفّت هاجر عن التباهي بحَمْلها، بل كانت تؤدّي المهام التي تكلّفها بها ساراي دون تذمّر. احتفظت هاجر بجزءٍ مما قاله الغريب لها في قلبها فإن عرفت ساراي الحقيقة كاملة لاستغلّتها لصالحها بكل تأكيد.

لا، لا ينبغي أن تعرف ساراي أبداً بأن الرجل أمرها بالخضوع لسيدتها. احتفظت هاجر بذلك الجزء اليسير في قلبها، لكنها خضعت بالفعل، ونفذّت كل ما كان يُطلب منها بطاعة.

كان الأمر صعباً في البداية لأن ساراي كانت تستهزئ بها وتوكل لها جميع المهام التافهة والمبتَذلة وكانت هاجر تعضّ على شفتها كثيراً، لكن كلّما ركّزت على الوعود شعرت بقوة لا يمكن تفسيرها تسيطر على مشاعرها.

رويداً رويداً لانت ساراي، خاصة بعد أن أنّبها أبرام، قائلاً لها بأنها يجب أن تكون شاكرة لعودة هاجر وأن عليها أن تكون لطيفة معها. في البداية كان قول ذلك أسهل جداً من فِعله، لكن ساراي حاولت، ومع مرور الوقت لاحظت أن هاجر لم تعد تتفاخر بحملها. ومع اقتراب موعد ولادتها قررت ساراي أن ترمي ألم الماضي وراءها. فبالرغم من أن الطفل لن يأتي من رحمها إلا أنه سيكون ابنها. ومع ولادته ستُمحى وصمة العار والخجل بكونها عاقر.

بعد بضعة شهور أعلنت آلام المخاض عن دنو موعد ولادة الصبي. أغبطت فكرة حمل الطفل الرضيع بين يديها هاجر. فمن ناحية هي تصدّق أنه صبي لأن الله قال لها ذلك بوضوح، ومن ناحية أخرى لم يسعها سوى التساؤل **ماذا لو كانت فتاة بالرغم من كل شيء؟ ماذا سيقول سيدي عندها؟ غريب كيف يمكن لشكوك كهذه أن تبرز بعد مقابلة غير عادية كتلك مع الله. هل يشكّ الآخرون أيضاً؟** لكنها لم تشارك أبرام بشكوكها خشية أن يقول أنها غير مؤمنة. لحسن الحظ هي ليست مضطرة للانتظار طويلاً لتعرف الحقيقة.

عندما هدهد أبرام ابنه الصغير بين يديه شعّ وجهه بالبهجة وطفرت الدموع من عينيه رغماً عنه.

الله صالح جداً.

لقد انتظر هذه اللحظة سنوات طويلة، وها هو ابنه البِكر، وريثه الذي سيحمل اسمه. هذا هو الابن الذي سيعطيه الله نسلاً كثيراً من خلاله. لقد حقّق الله الوعد الذي وعده به. فاض قلب أبرام بالامتنان فقرر إقامة وليمة عظيمة للاحتفال بهذه المناسبة الخاصة.

دعا أبرام أصدقاءه في كنعان إلى جانب أقاربه وعبيده، فقد أراد أن يعرف الجميع أن الله أزال وصمة عار كونه بلا ولد. فحين رُزق أخواه ناحور وهاران بأبنائهما منذ سنوات مضت بقي هو أبرام خادم الله العلّي بلا ذرية. لكن الله أجرى قدرهُ وحقّق وعده.

بكل تأكيد هذا ليس أي ولد! فأبرام يتذكّر كل التفاصيل التي روتها هاجر في تلك الأمسية عندما عادت إلى المخيّم إذ قالت: «سيجعلني أماً لأمّة عظيمة.» بل أن هاجر عادت حاملة اسماً للصبي! نُحِتت في ذهنه كل كلمة تفوّهت بها في تلك الليلة خاصة الجزء المتعلق بمستقبل اسماعيل الذي ترك فيه أثراً عميقاً.

«سيكون اسماعيل إنساناً كحمار وحشي.»

هذا القول يتطابق مع ما كان الله قد أخبر به أبرام أيضاً: «أُعْلَم أن نسلك سيكونون غرباء في بلدٍ غير بلدهم. وسَيُستَعْبَدُون لأهل ذلك البلد حيث سيُضْطَهَدون مدّة أربعمائة سنة.»[٩]

في ذلك الوقت أثارت هذه الكلمات القلق في قلب أبرام مغذيّة مشاعر الخوف والحزن لأن نسله سيتألم بشدّة وجعله يقرر بذل قصارى جهدة لتفادي ذلك، لكن الله أكّد ذلك بالإعلان الإلهي لهاجر بأن اسماعيل سيكون كحمار وحشي.

فكّر أبرام بتلك القطعان التي رآها أثناء رحلته من أرض أور إلى كنعان في حين حافظت تلك الحيوانات البرية على مسافة كافية بينها وبين البشر ولم يحاول أحد أسر البعض منها إذ كان منظرها جميلاً وهي تحوم حولهم بحرية.

البعض من الحمير الخاصة به اهتاجت عندما سمعت نهيق الحيوانات البرية ومَن يدري لربما أرادت الهرب طلباً لحريتها لولا الرُّبُط التي منعتها.

هذا ما سَيُقَدّمه الله لإسماعيل – الحرية. قَد يكون هناك وقت آتٍ من العبودية لكن في يوم ما سيكون نسله أحراراً.

بدأ جيران أبرام وأصدقاؤه بالتوافد واحداً تلو الآخر إلى المخيّم لتهنئته على ولادة ابنه. وكان يروي لهم بفخر عن لقاء هاجر بالغريب. وبالرغم من أن بعضهم كانوا قد سمعوا القصة مُسبقاً إلا أنها بقيت تفتنهم في كل مرة يسمعونها خاصة وأن النبوءة بولادة الابن قد تحققت.

«ثم قال لها الرجل ‘ستدعينه اسماعيل’ ولهذا أطلقنا على ابني اسم اسماعيل»

يا له من اسم رائع! لا بد وأن أبرام يخدم إلهاً فريداً يختلف كثيراً عن كل الآلهة الأخرى التي يعبدونها في كنعان والتي يقدّمون لها الذبائح وعندما يطلبون المطر من آلهتهم فإنها تمطر أحياناً أو عند تأديتهم لبعض الطقوس فإنهم يغلبون أعداءهم لكن آلهتهم لا تتكلم أبداً فهي لم تنطق يوماً بكلمة إنما إله أبرام أمره بالمجيء إلى هذه الأرض وحتى أنه أخبره عن اسم ابنه ناهيك عن معنى ذلك الاسم الجميل «الله يسمع.»

كما أنهم يذكرون أيضاً كيف حارب أبرام، بزمرة قليلة من الرجال المسلَّحين، أعداءهم من الملوك الخمسة الأشدَّاء لإخلاء سبيل لوط ابن أخيه. فَعِندَما جاء إليهم طالباً معونتهم في المعركة أجابوه: «لا بد أنك جننت لا يمكننا محاربة كل ذلك العدد من الجيوش». إلا أن أبرام أجابهم بثقة أن الله سيكون معه وسيعطيه الغلبة. في النهاية لم

٩ تكوين ١٥: ١٣

يرافقه سوى ثلاثة من أصدقائه المُقرَّبين لكنهم حقَّقوا المستحيل وتغلّب بضع مئات من رجال أبرام على الملوك الخمسة المُعادين وجيوشهم الجرّارة. أيُّ إله هو إله إبرام هذا؟

نادراً ما شعر اسماعيل بالمرض وكان ينمو بسرعة فائقة كالعشب البري. وكان يحشر كل أنواع الأشياء التي يجدها على أرض الخيمة أثناء زحفه في فمه الصغير فيما ضحك والديه إزاء حركاته البهلوانية، فشكله بدا لطيفاً جداً بذلك الشارب الترابي المرسوم بسبب المُخاط النازل من أنفه.

خلال السنوات الأولى من حياته كان اسماعيل في رعاية هاجر التي كانت تُرضعه وتخيط له الملابس الجديدة كلما احتاج إليها، لكنه سينتقل للعيش في خيمة ساراي عندما يحين موعد فِطامه، فهو ابنها بحسب القانون لأنها زوجة أبرام، في حين لم تكن هاجر سوى المحظية.

في ومضة عين حلَّ عيد ميلاد اسماعيل الثالث، وهو وقت الفِطام. أعدَّ أبرام للاحتفال بهذا الحَدَث الأول في حياة ابنه الصغير وليمة كبيرة حضرها جميع العبيد، حيث كان الجميع مسروراً للتمتع بأمسية خالية من الأعمال بالرغم من أن الواقع عَنى أن الرجال في بيت أبرام هم الذين سيستلقون ويريحون أقدامهم المُتعَبة فيما ستعمل النساء على تحضير الطعام والشراب ثم غسل جميع الأواني المتَّسِخة.

ببلوغ اسماعيل سن السادسة، انتهى وقت اللعب وحان الوقت ليتعلّم تحمُّل مسؤولية أداء مختلف المهام الخاصة به. لم يمانع اسماعيل فِعل ذلك بل كان يتطلَّع قُدُماً لهذا اليوم بشوق. أخيراً سُمِح له بمرافقة أبيه لزيارة الأسواق للتجارة الخاصة ببيع وشراء الخِراف والمواعز. بل أن والده أعطاه بضعة أغنام ليعتني بها. كان اسماعيل يستمتع بطفولته وتبيَّن أنه كان صبياً سليماً ومُجِدًا مما جعله يحوز على إعجاب جميع أفراد القبيلة.

في أحد الأيام اكتشف اسماعيل أمراً فذهب إلى أمه وسألها: «أمي، لماذا يختلف لون بشرتي عنكِ وعن أبي؟ فلون بشرتي داكن جداً» فأجابته ساراي: «تلك قصة مدهشة يا بني» إذ كانت تتوقع هذا السؤال منذ مدة وكانت تلك لحظة مناسبة للحديث معه بهذا الخصوص.

أجابته قائلة: «أنت ابني الشرعي رغم أنني لم أحملك في أحشائي.» حدَّق فيها اسماعيل بفضول متزايد ففسَّرت له أن هاجر هي والدته التي أنجبته. وقبل أن تُكمل حديثها قفز اسماعيل واقفاً وركض خارجاً ليستكمل اللعب مع أصدقائه صائحاً: «حسناً.» فهو يشعر بالأمان في محبة ساراي له وقد تم إشباع فضوله إلا أن الوقت قد حان ليتدرّب مع رفاقه على رمي الحصى، فكل راعي غنم يحتاج لأن يكون رامي حصى خبير لمنع الخراف من التفرّق، كما أنه يريد أن يثبت للحيوانات مَن هو المسؤول عندما يكبر.

٣ مُفاجأة مؤلمة

«اسماعيل!» نادى رجل من بُعد وصدى صوته يتردد في سفح الجبل.

استدار الشاب الطويل نحو اتجاه الصوت الصادر وصاح مجيباً: «ما الأمر؟» وهو يجول ببصره في الأفق باحثاً عن صاحب الصوت.

«أبوك بحاجتك.»

ميَّز اسماعيل الآن صوت المنادي بأنه صوت أَلِيعازَر خادم أبيه الأمين. هذا غريب. **لماذا يناديني أبي؟ لم نخرج منذ مدة طويلة لرعاية الغنم وبكل تأكيد لم يحن وقت الغداء. هل حدث أمر سيء؟** أسرع اسماعيل في لملمة ردائه الطويل وجمع طيّاته في حزامه ثم ركض قافزاً فوق الصخور والحجارة نحو أليعازَر. وصل اسماعيل عنده وسأله لاهثاً: «ما الخَطب يا أليعازَر؟»

هزَّ أليعازَر كتفيه قائلاً: «كل ما قاله السيِّد أنه يحتاجك.»

أطلق الفتى مباشرة وبدأ بالقفز برجليه الطويلتين القويتين من صخرة إلى صخرة متحاشي العقبات بمهارة فائقة وأثناء ركضه السريع نحو البيت دارت في ذهنه كل أنواع الخواطر لم يأتِنا ضيوف مميزين، ولم تحصل أي حوادث، قال لي أبي هذا الصباح: «أراك في المساء يا بُني» لذا من المستحيل أن أكون قد نسيت موعداً ما وبالرغم من ذلك هناك أمر جدّي حدث وإلا ما كان أرسل أبي في طلبي. حتى أليعازَر ليس لديه فكرة عما يجري.

وصل اسماعيل إلى المخيّم بعد مدة قصيرة حيث وجد أبرام في انتظاره داخل خيمته. خَلَعَ الابن نعليه ومشى فوق البساط المُحاك بحِنكة وطبع قبلة على جبين والده قائلاً والقلق بادٍ في نبرة صوته: «ما الذي حدث يا أبي؟» كان والده في التاسعة والتسعين من العمر وكان يبدو وجهه شاحِباً، لا بدَّ أن أمراً مريعاً قد حدث.

«تعال واجلس معي يا بُني» قال أبرام مشيراً بيده في دعوة لابنه للجلوس. فجلس اسماعيل القرفصاء إلى جانب الرجل العجوز دون أن يزيح نظره المتفحِّص عن وجهه. بعد أن استقر اسماعيل في مجلسه بدأ أبرام الحديث: «هل تذكر لقاء أمك مع الرب قرب البئر؟»

أومأ اسماعيل بالإيجاب فهو يذكر ذلك بوضوح، بل إنه حفظ القصة عن ظهر قلب، كل كلمة وكل تفاصيل القصة بحذافيرها.

«وبلا شك تذكر أنني سمعت صوت الله عندما كنت أسكن في أرض ولادتي؟»

«نعم، بكل تأكيد، الصوت الذي قال لك ...»

أومأ أبرام لابنه لالتزام الصمت واستمر بالحديث: «خاطبني ذلك الصوت مرة ثانية هذا الصباح.»

«و ... ماذا قال؟» سأل اسماعيل بترقُّب فهو يعرف جيداً من والديه أن شيئاً حَسَناً يتبع الصوت عندما يتحدَّث، **لكن إن كان ذلك ذات الصوت حقّاً فلماذا يبدو والدي متوتِّراً هكذا؟**

أخلى أبرام حنجرته واستكمل حديثه: «وعدني الله مرة أخرى بأن يكون لي نسل كثير.»

«لكن، يا أبي، هذا رائع. هذه هي المرة الثالثة التي يقطع لك فيها الله هذا الوعد، بكل تأكيد سيتحقَّق الوعد. لا تقلق عليَّ أبداً، سيباركني الله ويحفظني.»

أشار أبرام للمرة الثانية لإسماعيل بالصمت. «الوعد مختلف هذه المرة يا بني.» وانحدرت دمعة على وجنته أثناء قوله هذه الكلمات وغرقت في لحيته الكثيفة. أراد اسماعيل بشدّة أن يطمئن والده لكنه عرف أن عليه الإصغاء أولاً.

«قال لي الله أنني سأكون أباً لأكثر من شعب واحد ووعدني مرة أخرى أن هذه الأرض التي نسكنها الآن ستكون مُلكاً لنسلي. والآن يريد الله أن يؤكِّد عهده معي بطريقة خاصة.» لم يتفهَّم اسماعيل تجهُّم أبيه إزاء وعد بمستقبل مُشرِق كهذا. وكاد أن يعطي لأفكاره صوتاً لكنه تدارك نفسه في اللحظة الأخيرة ولزم الصمت مصغياً لكلام أبيه فيما شرح أبرام لابنه ما يطلبه الله منهم لخَتْم العَهْد.

اقشعرّ بدن اسماعيل عند سماعه عن الخِتان. فهو في عنفوان الشباب وهو مدركٌ لرجولته، ويعرف تماماً مدى حساسية هذا العضو من الجسد، إذ لم يمضِ وقت طويل منذ أن أصيب بكدمة في ذلك الموضع ويذكر جيداً كم قاسى من ألم مبرح لساعات طِوال قبل أن يخبو الألم.

«متى ستفعل هذا يا أبي؟» سأل اسماعيل متمنياً أن يؤجِّل أبوه التنفيذ لبضعة أيام إذ كان يخطط لمسابقة القفز فوق الجمال مع بعض أصحابه وهي لعبة شائعة بينهم حيث تصطف مجموعة من الجِمال واحدها بجانب الآخر والذي يقفز فوق أكبر عدد من الجِمال يفوز. كان اسماعيل شاباً طويلاً واثقاً من رشاقته مما يعطيه أفضلية للفوز على أقرانه بجدارة، وهي طريقته في إكرام عائلته فوالده رجل وقور وله احترامه في المجتمع وهو يريد أن يثبت للجميع أنه ابن أبيه.

مرة أخرى زجر أبرام ابنه ليلزم الصمت. «هناك المزيد، سيكون لك أخ صغير.»

«آه يا أبي .. هذا رائع! لطالما تُقت أن يكون لي أخ.»

نظر أبرام نحو ابنه وابتسم. «أنت ولد صالح، أنا فخور بك,» ثم عاد للصمت باحثاً عن الكلمات المناسبة التي تعكس ما يريد أن يقوله دون أن يجرح ابنه فهو مُلزَم بإخباره الحقيقة الكاملة.

«أخبرني الله بالاسم الذي يجب أن نطلقه على أخيك، تماماً كما قال سابقاً لأمك عن اسمك، سيكون اسمه إسحق.» وامتنع أبرام عن قول المزيد لإسماعيل قبل أن يرفع صلاة في صمته: «يا رب، لا أريد أن أجرح ابني، لا أريده أن يشعر بالرفض، ساعدني على إيجاد الكلمات المناسبة.»

شعر اسماعيل أن أباه يخفي عنه شيئاً فلغاية الآن لم يخبره سوى بالأخبار الجيدة التي تخلو من أي منغِّص قد يسبب له أي ضيق.

«أبي، لماذا أنت متضايق؟ لمَ لا تخبرني بكل شيء؟ أعرف أنك تحبني وأنا أحبك أيضاً.»

هدّأت كلمات اسماعيل اللطيفة من توتر أبرام. «نعم بالتأكيد، أنا أحبك كثيراً يا بُني لذلك يَصعُب عليَّ إخبارك بما قاله الله لي، وقد سألته إن كان هناك أي طريقة أخرى لتحقيق ذلك لكنه أجابني بأن هذه هي خطته.» حدّق اسماعيل في وجه أبيه بتعاطف ورسم ابتسامة ضئيلة على وجهه ليظهر لأبرام أنه ليس قلقاً البتّة.

«قال الله أن إسحق ... أنه ....» تردد أبرام وجفَّ حلقه وواجه ابنه وعينيه البنيَّتين الواسعتين غارقة بالدموع في حين بدت خطوط وجهه محفورة بعمق في جبينه أكثر من ذي قبل وتمتم بقلب مكسور «سيقطع الله العهد مع إسحق وليس معك.»

أخفض اسماعيل رأسه نحو الأرض محدِّقاً في قدميه. لقد توقّع أي شيء إلا هذا، لا يمكن أن يكون هذا صحيحاً، لا بد أن أبيه أساء الفهم، أراد أن يصرخ لكن لا يمكن لشاب يافع أن يرفع صوته في وجه أبيه، سيكون أمراً مخزياً إن فعل هو ذلك. لذا تمالك إسماعيل أعصابه لكن الأفكار الملتهبة داهمته: **أنا البِكر، العهد لي أنا. من المستحيل أن يُقطع العهد مع أخٍ أصغر. ألم يعِد الله أمي أنني سأكون أباً لأمّة عظيمة؟**

أفصحَ اسماعيل لأبيه عن أفكاره بغضب وذكَّره بكل ما يذكره عن مقابلات والديه السابقة مع الله ثم سأل أبيه مشكِّكاً: «أبي، هل أنت متأكد أن هذا كلام الله؟»

شعر أبرام بقلبه يتمزّق في صدره، ألم يتساءل عن ذلك أيضاً؟ فهو يجاهد لتصديق كلام الله. اسماعيل محق. من الممكن أن تنطبق جميع الوعود على حياته بسهولة. ألم يصلِّ أبرام من أجل عودة هاجر لذلك السبب تماماً؟ كل المؤشرات كانت تدل على ذلك. ورغم ذلك، شعر أبرام بهدوء لا يمكن إنكاره، كما أنه ميَّز صوت خالقه في الكلمات التي نطق بها الله اليوم.

عاد أبرام بفكره إلى الماضي عندما ناقش الخطة مع ساراي التي قالت له وقتها: «لقد جعلني الله عقيمة، والآن انقطعت عني عادة النساء. لن أحمل بطفل أبداً.» كان بمقدور الله أن يمنحهما طفلاً طوال هذه المدة فقد انتظر أبرام حدوث المعجزة عشر سنوات لكن الله لم يفتح رحم ساراي. من الواضح أن الله كان يعدّ خطة مختلفة لتحقيق وعوده. عندما أشارت ساراي على أبرام أن يأخذ هاجر خحظية له ليصبح أباً بدت له الفكرة حميدة لدرجة أن تكون فكرة إلهية فلم يحتج وقتاً طويلاً من التفكير ولم يضيع الوقت قبل أن يأخذ هاجر زوجة له. في ذلك الوقت بدت تلك فكرة مثالية. وبارك الله ارتباطهما بابن فلو لم تكن هذه مشيئة الله ألم يكن بإمكانه أن يمنع هاجر من الحمل؟ لا، لابد أن الله قَصَد أن لإسماعيل أن يولد.

مدّ أبرام يده ليمسك بيد ابنه مؤكِّداً له صدق محبته. «اسماعيل، أنت بِكري وستبقى كذلك دائماً فلا شيء في العالم يمكنه أن يغيِّر هذه الحقيقة. وقد طلبتُ من الله أن يباركك وهو وعدني بدوره أنه سيفعل.»

فكَّر أبرام ملياً فيما إن كان عليه أن يخبر اسماعيل بكل ما قد كشفه الله له فهو يشعر بترقُّب ابنه لما سيتبع من حديث. **إنه شاب صالح، لقد بلغ الثالثة عشرة ولو عرف كل تفاصيل القصة لأمكنه أن يعيها بشكل أفضل على رجاء أن لا يدير ظهره لله في خضم غضبه.** أكمل أبرام: «سيباركك الله كثيراً وسيعطيك اثني عشر ابناً يكون كل منهم أميراً، ستصبحون شعباً عظيماً وجباراً.»

تذكَّر أبرام أثناء حديثه الكلمات التي نطق بها الله في ذلك الصباح والتي لم يدرك معناها في ذلك الوقت لكنه قادر الآن على رؤية أهمية تلك الكلمات بوضوح تام. كانت تلك كلمات قوية وتوكيداً على محبة الله لإسماعيل. «هذا هو الكلام الذي كلّمني به الله: 'أما دُعاؤك من أجل إسماعيل، فقد سمعته. فسأباركه'.»[١٠]

نظر إسماعيل نحو أبيه بذهول. **ما الذي يحاول قوله؟** رأى أبرام الشكَّ في عيني ابنه وشرح له ما فهمه لغاية الآن «يا بني، هل تذكر ما قاله الله لوالدتك بعد أن هربت من البيت؟» أومأ إسماعيل بالإيجاب.

«الله لا يباركك لمجرَّد أنني طلبت منه ذلك، فهو قرَّر أن يباركك منذ أربعة عشر عام مضت.» حالما نطق أبرام بهذه الكلمات امتلأ قلبه بفيض من الامتنان إزاء اهتمام

١٠ تكوين ١٧: ٢٠

الله بمصير ابنه، وفجأة خطر له خاطر آخر الطريقة التي تدخّل بها الله عندها هربت هاجر لم تكن نتيجة لصلواتي فقط، فقد أظهر نفسه لهاجر بوضوح لم يرهِ أي إنسان قط إذ ظهر لها على هيئة إنسان من لحمٍ ودم، لا بد من وجود معنى أعمق لكل هذا. لم يتمكّن أبرام من تصوُّر ماهية المعنى من ذلك لكنه حفَّزه لتشجيع ابنه فأكمل قائلاً بقناعة تامة: «لله خطة محددة لحياتك يا إسماعيل وأنا متأكد أنه سيحقِّقها أيضاً. أعي أنك مصاب بالإحباط الآن لكن كن متأكداً أن الله سيفعل ما وعد به فهو يحبك كثيراً.»

«وماذا بالنسبة للوعد بالأرض؟» استفسر إسماعيل.

«لا أعرف يا بني لكن الله سيعتني بك كما اعتنى بي وسدَّد جميع احتياجاتنا خلال الخمسة والعشرين عاماً الماضية التي سكنتها في هذه الأرض الغريبة. بطريقة أو بأخرى سيعطيك الله كل ما تحتاج إليه وسيوفِّر لك مكاناً لتسكنه.»

عند تفوّه أبرام بتلك الكلمات اقترب إسماعيل من والده واضعاً رأسه على كتفه، فوَخْز لحيته ودفء نفسه يهدِّآن من رَوْعه، وبالرغم من كون الأخبار مُزعجة إلا أنه يحتمي مطمئناً في محبة أبيه.

تعانقا لوهلة وكل منهما مستغرق في أفكاره الخاصة ثم قطع أبرام حبل الصمت «كما قلت سابقاً، كجزء من العهد وضع الله مهمة أمامي وهي السبب الحقيقي وراء دعوتي لك.» عدل إسماعيل جسده المشدود ليجلس مستقيماً. «يجب أن يختتن كل رجل وصبي! سنفعل ذلك غداً، لكنني أردتك أن تسمع ذلك مني أولاً قبل أن أخبر الباقين.»

قطب إسماعيل جبينه لشعوره بالإحباط فأولاً أخبره أبوه أنه لن يرث الأرض والآن ستُلغى مسابقة القفز فوق الجِمال، يبدو له وكأن الله لا يهتم لأمره حقاً.

لحظ أبرام تجهُّم ابنه فقال: «تذكر جيداً يا بني بأننا بهذا الختان نصبح جزءاً من العهد.»

ارتاحت اسارير إسماعيل عند سماع ذلك فهو سيكون جزءاً من العهد بالرغم من كل شيء. لا زال لا يفهم الأمر تماماً لكن غضبه نحو الله خبا قليلاً، فالله لم يرفضه تماماً.

في غضون ذلك، ملأت رائحة اللحم المشوي الشهية أرجاء الخيمة وحالما وصلت إلى أنف اسماعيل حتى بدأ هدير الجوع يصرخ في معدته .. حان وقت الغداء.

واحداً تلو الآخر دخل الرجال إلى خيمة الاجتماع حيث كان أبرام متكئاً على فراش محشو بالقش في صدارة المجلس المواجه لمدخل الخيمة وإلى جانبه جلس إليعازَر خادمه الأمين ويده اليمنى. أكواب المشروب الساخن موضوعة على صواني نحاسية كبيرة في وسط الخيمة يتصاعد منها البخار في دعوة واضحة للرجال ليأخذوا كوباً قبل أن يستقروا في أماكن جلوسهم، حيث سيجلس كبار السن والمسؤولون قرب أبرام في حين يتخذ بقية الرجال أماكنهم في أرجاء الخيمة الواسعة. كان الحماس متقد أثناء احتساء الرجال للمشروب الساخن فمن غير المألوف أن يتم دعوة الجميع أثناء يوم عمل عادي كهذا. فاليوم السابع وهو يوم اجتماعهم التقليدي لن يحين إلا بعد يومين. لا بد من أن أمراً جلياً قد حدث! لكن يبدو أن لا أحد يعرف شيئاً عما يجري كما أنه لم يكن هناك أي ضيوف جدد. كل ما عرفوه أن أبرام دعا إسماعيل دون سابق إنذار والآن يغلبهم الفضول لاكتشاف الدافع لدعوة سيدهم لهم بهذا الشكل.

تصدَّر أبرام الجلسة وتكلّم عن وعود الله وأثناء حديثه سرح الرجال في أفكارهم. لقد سمعوا كل هذا الحديث من قبل ولم يَعُد يفتنهم. حتى أن بعضهم غلبه النوم وغفا بعد تناول وجبة غداء دسمة ولذيذة متبوعة بالمشروب الساخن، ولم يساعدهم الهواء الخانق المتسلل إلى داخل الخيمة، لكن عندما بدأ أبرام بالحديث عن لقائه مع الله في ذلك

الصباح بالذات تيقَّظ الجميع فجأة وانتصبت ظهورهم فيما حاولوا استيعاب كل كلمة نطق بها أبرام.

تكلَّم الله مع أبرام مرة ثانية! لم يكن أيٌّ منهم قد التقى بإلهه قط لكن يبدو أن سيدهم يملك موهبة خاصة. وعندما يتكلَّم إلهه يكون وقتاً للإصغاء بانتباه.

ذكَّرهم أبرام مراراً وتكراراً عن مصدر ثروته وعن السبب في عدم تعرّض جِماله وخِرافه للسرقة قط ولماذا بالكاد يمرض أي منهم أو حتى يموت فلا بد أن يكون الله الذي يعبده أبرام إله صالح وجميع العبيد مكتفون وراضون في خدمة أبرام.

«لقد اختبر كل واحد منكم حضور الله» وضّح أبرام: «وقد تعاهد الله معي لتحصدوا جميعاً بركة هذا العهد» وافقه الرجال.

«وضع الله أمامي هذا الصباح مهمة كجزء من العهد.» وفيما شرح أبرام الأمر ارتجف القوم جميعاً.

لا بد وأن استئصال جزء من تلك المنطقة الحساسة من أجسادهم أمر مؤلم جداً. هل يتوجّب عليهم فعلاً المُضي قدما في ذلك ليكونوا جزءاً من العهد الذي قطعه الله مع أبرام؟ بالرغم من أن قلق الرجال المتزوجون انحصر في أمر مختلف تماماً حول فيما إن كانوا سيتمكنون من ممارسة العلاقة الزوجية مع زوجاتهم بعد ذلك إذ لم يسمع أي منهم عن الختان من قبل، وليس لديهم أدنى فكرة عن تأثير ذلك على فحولتهم. قد يفقدون قدرتهم على الإنجاب بعد ذلك!

كان أبرام نفسه قد صارع ببعض تلك الأفكار. «أعرف أن البعض منكم قلق. لا تخافوا! لقد وعدني الله بابن. فحتى بعد الختان سأبقى رجلاً نشيطاً مكتمل الرجولة وقادراً على الأداء.» تعالى صوت ضحكات الرجال وارتفع فوقها صوت أحد الرجال المتزوجين حديثاً: «ما تعلّمناه في المهد يبقى معنا حتى القبر.»

شاركهم أبرام مرحهم من كل قلبه ثم أكمل: «وإن كانت هذه حالي فسينطبق الأمر عليكم كذلك.»

قول أبرام الأخير جعل الأمر يبدو أمراً منطقياً بالنسبة لهم. فاقتنع بعض الرجال من مجرد سماعهم لكلمات أبرام وقبلوا العبء الموضوع على كاهلهم، في حين خاف آخرون من الألم قلقين من تبعيات ومخاطر الأمر.

مال أحد العبيد الجالسين بالقرب من أليعازر نحوه وسأله هامساً عما يمكن أن يحدث إن رفضوا المثول للختان ولم يعرف أليعازر الإجابة عن ذلك السؤال فتحوّل نحو أبرام وطرح السؤال: «ماذا سيحدث إن لم يرغب أحد الرجال بالخضوع للختان؟ ماذا عندها؟»

عرف أبرام أن هذا السؤال راود العديد منهم فيما كان يجول بنظره في وجوه الرجال. إنها لحظة صعبة، كيف سيقنع رجاله أن الله يريد أن يظهر لهم محبته العظيمة فيما كل ما يمكنهم التفكير به ينحصر بالألم والخوف؟ عاد بذاكرته إلى أحداث جنة عدن فبالرغم من أن الجَمْع شمل خليطاً غريباً من العبيد والخدم والأقارب من شتى المناطق إلا أن كل منهم يعرف أنه من نسل آدم بل إن البعض منهم رافق أبرام من أور وآخرين رافقوه حتى حاران ومصر في حين كان البعض من هنا، من كنعان.

«منذ بضعة أسابيع، وفي يوم الراحة، أخبرتكم كيف خلق الله الإنسان الأول وأسكنه في بستان جميل حيث كان كل شيء كاملاً. وأعطى الله آدم الاختيار بين الحياة والموت وجميعنا نعرف ما كان اختياره، اعصِ الله وستموت! لن تكونوا جزءاً من هذا العهد. سأطرد ذلك الشخص بعيداً إذ لا يمكنه أن يكون فرداً من هذا البيت فيما بعد.» أومأ

أليعازر رأسه بالموافقة فهو يعرف أبرام جيداً ويعرف أنه لا يقول مثل هذه الأمور ليسيء لأحد أو يجرحه بل العكس تماماً فأبرام يريد الأفضل لكل واحد من هؤلاء الرجال اليافعين وما قاله للتو لم يكن استثناء.

بعد إجابة بضعة أسئلة اخرى أصدر أبرام أوامره لحراس الخيام أثناء الليل حول المخيّم أن يستعدوا في حين كان السؤال ذاته يدور في ذهن جميع الرجال «مَن الذي سيخضع للسكين أولاً؟»

بعد وقت قليل أخبر احد الخدم أن كل شيء أصبح جاهزاً فنهض أبرام وأومأ لابنه، فمد إسماعيل يده للإمساك بيد أبيه الممدودة نحوه وأحس بالعرق المتصبّب منها، وسارا نحو الخيمة يداً بيد، تلك اللحظة كانت سبب توتّر للجميع حتى بالنسبة لأبيه القوي والحكيم.

قبل أن يدرك إسماعيل ما الذي يحدث انتهى الأمر. وأزيلت غرلته. لو لم يكن أباه صخرة صامتة ولو لم يكن يحبه كثيراً لكان إسماعيل قد اختبأ، لكنه أراد أن يكون شجاعاً، فابتلع مخاوفه، والآن بما أن الأمر انتهى فهو يشعر ببعض الألم لكنه لم يكن بالسوء الذي توقعه. تعجّب من السلام الشديد الذي يشعر به في قلبه، سلامٌ أقوى من الألم الجسدي وقد عرف في أعماقه أصبحتُ جزءاً من العهد أيضاً.

بعد أن يختتن جميع الرجال سيخضع أبرام نفسه للسكين وسيتوجّب على خادمه الأمين أليعازر الموثوق به القيام بذلك، فلا أحد يعرف أبرام مثل أليعازر بعد أن أمضيا كل تلك السنون معاً. بالرغم من أن أليعازر كان يفضِّل أن يترك تلك المهمة لشخص آخر، لكنه يتفهّم سبب اختيار أبرام له.

فور انتهائه تكلّم بوضوح وثقة قائلاً: «سيدي أبرام، ليباركك إلهك الرب ويجعلك اباً لأمم كثيرة.» مما رسم ابتسامة على وجه أبرام لما أبداه أليعازر من انتباه أثناء شرح أبرام لكل ما قاله في ذلك اليوم وأجاب: «ليباركك الله ويحفظك ويحفظ ذريتك يا أليعازر.»

حاول أبرام أن يهضم ويعي كل الأمور التي حدثت أثناء اتكائه في خيمته للتعافي فمنذ تلك اللحظة منحه الله اسماً جديداً ليكون شهادة دائمة عن العهد الذي أبرمه الله معه والذي من خلاله وعد الله أن يجعله أباً لأمم كثيرة. سيكون له أخيراً ابن من صُلبه مولوداً من زوجته سارة. كما سيبارك الله إسماعيل بسبب هذا العهد وبالرغم من شعور إبراهيم ببعض الألم إلا أنه مسرور جداً وبقلب ممتن لله همس: «يا رب، أنت صالح.»

تكوين ١٨-١٩

٤ دروس حكيمة

«أسرع يا إسماعيل! ألا ترى أنها ستمطر؟ لا أريد أن يبتل كل شيء.»

سار الصبي نحو خيمة أمه شاعراً بالغضب يتنامى في أعماقه إزاء تغيُّر معاملتها له منذ أن بدأت أيام وحامها. كانت تدلل ابنها عندما كان أصغر ولم يكن بإمكانه ارتكاب أي خطأ ولكن الآن ...

لمَ لا تدعو احد الخدم لخدمتها؟ اسماعيل متضايق جداً لكنه يعرف جيداً أنه من غير اللائق أن يدخل أحد الرجال إلى مخدع النساء خاصة إن كانت النساء لا تضع غطاء رؤوسهن. فهي واحدة من قوانين أبيه في المخيّم، إذ يريد أن يمنع الشباب اليافعين من العاملين لديه من التعرُّض لإغواء الشهوة بسبب جمال النساء، لهذا يحافظ أبيه على مستوى عالٍ من الأخلاقيات. وبالرغم من أن إسماعيل يحترم أبيه لفعله ذلك إلا أنه متأكد أن أمه تستغل الموقف لفائدتها.

لمَ عليه أن يؤدي أعمال الخدم بالرغم من وجود كل أولئك العبيد حولهم؟ أليس هو ابن السيد الوحيد؟ وقريباً سيصبح قائد الجماعة؟ لقد بدأ إبراهيم بتعليمه كيف يكاثر القطيع ويتفاوض بالأسعار، وكيف يحافظ على العلاقات التجارية في مختلف الأسواق، وكيف يحدد السعر المناسب للغنم التي يريد أن يبيعها. هذا النوع من الأعمال تمثِّل مستقبله وليس أعمال العبد الوضيعة.

إنها تتكاسل فقط عن وضع غطاء رأسها. استخلص إسماعيل. فهو يُسمح له برؤية أمه بدون غطاء رأسها لأنه ابنها وهو امتياز يحظى به أفراد العائلة فقط، ويُحظَر على أي كان من غير أفراد العائلة برؤية وجوه النساء في القبيلة.

هذه ليست المرة الأولى التي تستدعيه سارة ليؤدي لها إحدى المهام، وقد تذمَّر بشأن ذلك لوالده الذي وعده أن يتكلَّم مع سارة بهذا الشأن، لكن شيئاً لم يتغيّر حتى الآن.

أمرٌ مخزٍ أن تتلاعب سارة بجميع أفراد القبيلة. والده رجل قوي، ينافس ملوك الأمم المجاورة بلا كلل، وهم يعاملونه كندٍّ لهم لأنه قوي وله احترامه بين القبائل، لكن عندما يتعلّق الأمر بسارة يتحوّل إلى شخص ضعيف.

عندما أكبر ستفعل زوجتي ما أقوله لها تماماً. إنه لهراء مُطلق أن تأمرني أمي بأداء كل تلك المهام لمجرَّد أنها ستنجب طفلاً. عند اقترابه من الخيمة ركل إسماعيل حجراً نحو إناء نحاسي موضوع إلى جانب الخيمة مما جعل سارة تصرخ على الفور: «انتبه بحق السماء! أنت تخرِّب الأشياء طوال الوقت.»

«لا داعي للمبالغة» رد عليها إسماعيل منزعج «لم يحدث شيء، كما أن ذلك الإناء مليء بالانبعاجات.» **سخيفة هي الطريقة التي تحتاج فيها لكل شيء.** أخبرها وقد ثبَّت عينيه الداكنتين عليها بأن لا داعي لتوجيه الأوامر له هنا وهناك.

فردّت عليه سارة بدورها بنظرة عنيفة جعلته يلاحظ عينيها الجميلتين برموشها الطويلة والتي طالما طمأنته بنظرات الحب والسعادة التي تدفّقت منهما، أما الآن، فهما لا تنطقان سوى بالرفض والإدانة. فأشاح بوجهه عنها في محاولة لتجاهل مشاعره المتألمة.

مع سقوط أولى زخات المطر فكّ رباط قماش الخيمة الجانبي المصنوع من شعر الماعز وتركه لينسدل إلى أسفل مُغلقاً جانب الخيمة ليحميها من وابل المطر المتحرِّك مع اتجاه الرياح. وانتظر بفارغ الصبر ليلمح إشارة امتنان من أمه لما قام به من عمل العبيد لكنه لم يجد سوى الصمت.

«أبي، لم أعد أحتمل الطريقة التي تعاملني بها أمي» قال إسماعيل بصوت مرتعش عالماً أن أباه يقدِّرها كثيراً ويتضايق كثيراً عند انتقادها بهذا الشكل الواضح.

قد يغتاظ أبوه منه، لكن أحداث اليوم كانت الشَّعرة التي قصمت ظهر البعير، وعليه أن يزيح الأمر عن كاهله.

كان الليل قد أسدل أستاره وخلد الجميع للنوم فكان إسماعيل يأمل بأن يحظى باهتمام أبيه بدون أي مقاطعات.

نظر إبراهيم بتعاطف نحو ابنه. «ما الذي حدث يا بني؟»

فسرد إسماعيل أحداث ذلك اليوم على مسامع والده وعندما انتهى سأله أبوه: «هل من شيء آخر؟» فانفرجت أسارير إسماعيل وبدأ يستذكر أموراً أخرى جعلته يشعر برفض سارة له. وكان بين الفينة والأخرى يرفع نظره إلى وجه والده ليرى صدى كلماته في عينيه، لكن النور الصادر عن النار المتقدة عند مدخل الخيمة كان خافتاً فلم يتمكن من تبيان معالم وجه أبيه بوضوح. هل تلك الابتسامة المرتسمة على شفتي والده تشير إلى أنه يسخر من كلامه أم أنه يتخيَّل ذلك؟

«يا بني، عبء كبير هذا الذي تحمله» ومال نحوه فيما أكمل حديثه: «هل تفهم سبب حدوث هذه الأمور؟»

«لأنها تكرهني!» انفجر إسماعيل رغماً عنه فلم يكن يقصد أن يبدو صاخباً لكن هذه كانت حقيقة شعوره.

أحاط إبراهيم ابنه بذراعه وجذبه نحوه وبدأ حديثه: «دعني أشرح لك شيئاً يخص النساء.» ثم أخبره كيف أن النساء يشعرن غالباً بالتعب والاكتئاب أثناء الحمل مما يجعل أعصابهن تنفذ بسرعة فتصبح إثارة غضبهن سهلة في بعض الأحيان بالرغم من أنهن لا يقصدن ذلك.

«من الضروري لنا نحن الرجال أن نكون صبورين ونحتمل تعليقاتهن اللاذعة خاصة عندما يكن في فترة الحمل.»

ثم أضاف: «أمك التي ولدتك مرّت بنفس التجربة حتى أنها هربت من البيت أثناء حملها بك.»

لم ينظر إسماعيل للأمر على هذا النحو أبداً، وكان مسروراً لأنه تسنّى له الحديث مع أبيه بانفتاح عن هذه الأمور.

«وهناك أمرٌ آخر يا بني. لقد واجهنا انا وأمك الكثير من المتاعب أثناء حياتنا.»

أدار إسماعيل رأسه ونظر إلى أبيه متسائلاً وأكمل ابراهيم حديثه: «هل تذكر الوقت التي حدثتني فيه الله عن ولادة إسحق؟»

«ألم يكن ذلك في ذات الوقت الذي أخبرك فيه عن الختان؟»

«بالفعل. عندها سألتَني فيما إذا كنتُ واثقاً أن ذلك كان من الله وأوضحت لك أنني كنت مقتنعاً بذلك، لكن الأمر الذي لم أخبرك به في ذلك الوقت يتعلق بما كنا نواجهه أنا وأمك في ذلك الحين.»

حدّق إبراهيم عميقاً في عيني ابنه ليقيِّم كمّ الألم الذي تحمَّله هو وسارة، الألم الذي يمكنه أن يشاركه به الآن. وكانت عينا إسماعيل البنيتان مفتوحتان على وسعهما تحت

حاجبيه المقطبين في ترقُّب، فهو شاب واضح وصريح مما جعل إبراهيم يقرر ان يعلّمه درساً جديداً في الحياة.

«كما تعرف، يأتي وقت في حياة الحيوان تتوقف عنده القدرة على التكاثر، وذات الأمر ينطبق على البشر.»

«هل تقصد أن النساء الذين أنجبن من قبل سيصبحن في مرحلة من حياتهم غير قادرات على الحمل؟»

«هذا صحيح تماماً يا بني» ابتسم إبراهيم فهو مستمتع بسرعة البديهة والفطنة اللتان يتمتع بهما ابنه إسماعيل.

«في وقت ما وصلت أمك أيضاً لتلك السن وبما أن الله لم يكن قد باركها بأبناء في شبابها تيقَّنا عندها أنها لن تحظى بابن من صُلبها قط. وكان هذا مصدر ألم عميق في قلب أمك. ففي كل مرة كانت تزورها إحدى النساء كن ينظرن إليها بشفقة، وأحياناً كانت لا تحتمل الشعور بالمهانة. لن يتمكّن الرجال أبداً من فهم معنى العُقم بالنسبة للمرأة، فذلك يعني بالنسبة لهن إنكاراً لأنوثتهن، وقد تحمّلت أمك ذلك الرفض بصمت طوال هذه السنوات ... دون أن تصيبها المرارة في قلبها بسبب ذلك.»

«لكن يا أبي، ألا يمكن أن يكون الرجل عقيماً أيضاً؟» استفسر إسماعيل: «فعندما حاولنا تزويج النعاج للكبش ذا الأنف المرقّط لم يحدث شيء، لكن عندما زاوجناهم مع ذكر أخر حملت النعاج.»

«بكل تأكيد، أنت صبي ذكي» غمز إبراهيم بعينه نحو ابنه بالموافقة.

احمرّت وجنتا إسماعيل قليلاً استمتاعاً بالإطراء الذي تلقّاه «وذلك كان السبب الذي جعلنا نقرر أخيراً أنني سأتّخذ من هاجر – والدتك التي أنجبتك – زوجة لي. فبالرغم من كل شيء كان الله قد وعدني بنسل كثير وأنت تعرف ماذا حدث بعد ذلك.»

«نعم، لقد جئتُ للحياة» ضحك إسماعيل

«تماماً, وبالنسبة لي كان ذلك توكيداً كافياً بأنني رجل معافى وأن والدتك هي التي كانت عاقراً الأمر الذي سبّب لها صدمة كبيرة مما زاد الطين بلّة وأضاف المهانة للجرح، وعندما بدأت هاجر بالتباهي بحَمْلها ... حسناً، ربما يمكنك أن تتخيّل كم كان الامر صعباً على أمك.»

لم يسمع إسماعيل هذا الجانب من القصة من قبل. وخلال إصغائه لحديث إبراهيم امتلأ قلبه بالتعاطف نحو أمه سارة رغم أنه لا يزال يستشعر ألم ما حدث اليوم.

«بما أنها حامل الآن لا ينبغي أن تشعر بذلك الحزن أو الغضب بعد الآن»

«أنت محق، لكن هل تدرك على الأقل أن هذا الحمل يمثّل معجزة لامك ولي؟

أومأ إسماعيل بالإيجاب.

«في بادئ الأمر ضحكت، لم أستطع أن أصدق ما قاله لي الله. لم أتيقّن من الأمر إلا عندما ظهر لي الله للمرة الثانية، عندها عرفت أن أمك ستحمل.»

«متى كان ذلك؟» استفسر إسماعيل

«هل تذكر الدمار الذي حلّ بسدوم وعمورة منذ بضعة شهور خلت؟»

وكأن بإمكانه أن يمحي ما حدث من ذاكرته! لقد تأثّر كثيراً بحجم سُحُب الضباب المهولة التي تشكَّلت، وحثَّ والده على الهرب قبل حلول الكارثة لولا أن النار توقّفت عن حرق كل ما كانت تدنو إليه في الوقت المناسب، ربما بسبب جفاف الأرض القاحلة التي كانوا يسكنونها.

«في اليوم السابق للحريق الكبير زارنا الرب» استكمل إبراهيم «أخبرنا عن الدمار الذي سيحلّ على تلك المدن.»

استذكر إسماعيل ثانية: أولئك الغرباء الثلاثة في حللهم البيضاء اللماعة كما تذكَّر تفسير أباه لذلك بقوله أن أحدهم تكلّم كما لو كان الله ذاته.

«أخبرني الرب عن أمور أخرى أيضاً، أمورٌ كنتَ أصغر من أن تعيها. لقد وعدني أن أمك ستنجب ابناً حتى أنها سمعت ذلك بأم أذنها وضحكت في البداية من كلام الرجل، تماماً كما فعلتُ أنا في المرة الأولى التي سمعتُ فيها ذلك الكلام. تذكَّر ما كنت قد قلته من قبل.»

حاول إسماعيل أن يفتح ذهنه لتتغلغل فيه كل هذه المعلومات الجديدة متخيِّلاً نعجة عجوزاً لم يسبق لها أن أنجبت ثم فجأة بدأت بولادة الحملان، لم يحدث ذلك قط.

أكمل إبراهيم رواية قصته: «ثم قال لي الرب: 'هل يصعب أمر على الرب؟'[١١] في البداية شكَّت أمك لكن بعد أن رأت الحُكم يُنفَّذ بسدوم وعمورة صدَّقت. فشكرنا الله معاً لوعوده وعاهدنا أنفسنا بأن نثق بكلمته. وكما أصبحت تعرف الآن فأن وعده قد تحقَّق فعلاً.»

«أبي، بقدر ما أنا سعيد بسماع كل هذا إلا أنني لا أزال لا أفهم سبب نفاذ صبر أمي معي. ألا يُفتَرض بها أن تكون مسرورة؟»

«أمك مسرورة قطعاً بحملها لكنها لا تريد أن تُظهِر لك ذلك لأنك لست ابن الوعد. فهي تخفي ابتهاجها أمامك ولا تريد أن تظهر فرحها بوجودك. وفوق ذلك كله هي قلقة تجاه حملها، تخاف أن تزل قدمها وتقع و....؟» اختنقت الكلمات في حنجرته مما جعله يقطع كلامه دون أن يكمل.

لاحظ إسماعيل المأزق الذي تعرض له أبوه وكان لسانه مليئاً بالأسئلة التي يريد أن يطرحها، لكنه تعلّم أن يكون صبوراً، فوالده لا يخفي عنه أية أسرار، وعندما يحين الوقت المناسب سيخبره بما يريد أن يعرف.

فيما انتظر إسماعيل ما سيأتي لاحقاً وقعت عيناه على الرجل العجوز المحدِّق في الدخان المتصاعد عن النار أمام الخيمة وكانت شفتاه تتحركان وكأنه يتحدث مع شخص ما.

«يا الله، ليتمجّد اسمك» رن صدى صوت إبراهيم فجأة. فأدرك إسماعيل عندها مَن الذي كان يخاطبه أبوه.

نظر إبراهيم نحو ابنه وقال: «علينا أن نثق دوماً بالله في كل يوم من أيام حياتنا. تمسّك بهذا يا بني وكل شيء سيكون على ما يرام.»

---

١١ تكوين ١٨: ١٤

٥ وليمة حزينة

كل الأمور تسير على خير ما يرام فكر إسماعيل. هل يمكن أن يكون للأمر علاقة بما فسّره أبي لي؟ أو هل يُعقل أن أمي قد تغيّرت؟ أم أن الله يمد لنا يد العون ويساعدنا؟ لم يهتدِ للسبب وراء التغيير، لكن علاقته مع أمه كانت جيدة جداً خلال الأسابيع القليلة الماضية. لكن الآن! هو ممنوع من مجرَّد رؤيتها! بسبب كل النساء المنشغلات في مخدع النساء وهن يتراكضن جيئة وذهاباً. «لقد حان الوقت لولادة إسحق» أخبرته هاجر.

غرق إسماعيل في أفكاره. فمن الغريب جداً أنها تدعو الطفل باسمه حتى قبل أن يرى النور. لمَ لمْ تنتظر ولادته لتعرف إن كان ذكراً أم أنثى؟ وحتى إن كان صبياً، فمن الطبيعي أن لا يُطلق عليه أي اسم حتى اليوم الثامن من ولادته، أي عندما يُختتن بحسب العهد الأخير.

بقي إسماعيل غارقاً في أفكاره حتى بعد تناهي أولى صرخات بكاء الطفل إلى مسامعه مُعلِنة عن ولادته. ما هي خطة الله لأخيه الصغير؟ وما الذي يريده الله منه؟ ألم يطلق الله عليه اسمه بنفسه؟ لم يتمكن إسماعيل من فهم كل الأمر، لكنه كان يشعر بيد الله على مستقبله.

فجأة تناهى إلى سمع إسماعيل بكاء الطفل، أخوه! وتمنى لوهلة لو كان فتاة ليتمكّن من دخول مخدع النساء ويسترق نظرة نحو الطفل المولود. لكنه مضطر للتحلّي بالصبر. وبعد ما تبيّن له كساعات طوال من الانتظار خرجت هاجر من الخيمة قائلة بفرح: «إسحق طفل سليم وفي صحة جيدة!» تنهّد إسماعيل براحة وقال ما كان قد سمع والده يقوله منذ أيام: «يا الله، ليتمجَّد اسمك.»

كان الجميع سعداء خلال الأسابيع الأولى بعد ولادة إسحق يغمرهم الحماس لولادته. لكن عندما تحوّلت الأسابيع إلى شهور بدأ التوتر يتصاعد ثانية بين إسماعيل وأمه التي لم تكن تسمح له بحمل أخيه الصغير أو هدهدته كما كان يرغب لشدّة خوفها على إسحق مما يمكن أن يحدث له. فحاولت حمايته قدر استطاعتها مما أزعج إسماعيل بسبب حمايتها الزائدة فانسحب.

بالنسبة لسارة، بدا لها أن إسماعيل لا مبالٍ مما زاد من مخاوفها. فهي تشعر بأن لا أحد يفهم قلقها، مما أثقل كاهلها. ولكي تحمي نفسها أبعدت نفسها عن ابنها البكر أكثر فأكثر. بالمقابل، زاد إحباط إسماعيل إزاء شعوره بأن محبة أمه نحوه تضمحل فبدأ بتجنُّب سارة وابتدأ يتقرّب من والدته هاجَر أكثر فأكثر.

في عيد ميلاد إسحق الأول تذكّر إسماعيل السنوات التي سبقت كلام الله عن ولادة إسحق. يا للفرق الذي يمكن أن تُحدثه بضعة سنوات! لقد كان ابن أمه الوحيد وكان تمنحه الدلال باستمرار. فحين كان يتعيّن على كل أصدقائه أن يساهموا بكافة الأعمال المنزلية كان يُسمح له باللعب وفِعل ما يشاء. لم يشعر بالملل أبداً، فدائماً كان هناك ما يحدث في جميع أنحاء المخيّم؛ فقطعان الماشية الكبيرة كانت بحاجة للكثير من العناية خاصة في مواسم التزاوج وجزّ الصوف، وأبوه كان يستقبل الضيوف المهمّين وكان لديه الكثير من الأصدقاء وأيضاً كان يستقبل الغرباء ويدعوهم إلى خيمته لتناول الطعام

والراحة، وفي أيام تجارة السوق كان يرافقه للبلدة مع بعض الرجال فيبيعون بعض الحيوانات ويعودون حاملين الخضار الطازجة وبعض الضروريات اللازمة. تلك كانت أفضل أيام حياته.

كان إسماعيل يستيقظ عند بزوغ الفجر مع جميع الرجال العاملين لديهم وحالما تظهر أولى أشعة الشمس في الأفق البعيد كانوا يغادرون المخيّم، وفي حين كان الخدم يمشون على أقدامهم كان يُسمح لإسماعيل بركوب أحد الدواب. لطالما كانت الرحلة عبر الجبال مشوِّقة ومليئة بالمفاجآت خلف كل انحناءة. في إحدى المرات وصلوا للبلدة وكان الجو مفعماً بالنشاط والحيوية فيما عرض التجار بضائعهم فوق قطع من السجاد والحُصَر منتشرة تحت أغطية من وبر الخيم ترمي ظلالها على رؤوسهم لتحميهم من حر الشمس المتقدة فيما ارتفعت أصواتهم للتسويق لمنتجاتهم.

كان هناك أكشاك لبيع الأواني والأباريق والسلال وأدوات منزلية أخرى بالإضافة إلى كل أنواع الأدوات الزراعية، وكانت الخضروات الطازجة والفاكهة المليئة بالعصارة الحلوة تتناثر في أكشاك أخرى. الرائحة العطرة للخشب المقطوع حديثاً غلبت على أكشاك باعة الطاولات والأقفاص الخشبية. وفي جزء آخر من السوق كان الهواء يعبق برائحة القرفة والنعنع والتوابل المتنوعة.

وفي كل مرة خرج فيها إسماعيل للسوق مع الرجال كان يُسمح له بشراء غرض واحد لنفسه، طبعاً لم يكن يُسمح له بشراء شيء غالي الثمن أو خطير، إلا أنه تمكّن من جَمع مجموعة لا بأس بها من المواد التي يمكنه أن يقايض بها مثل الكِبار تماماً.

وأخيراً، كان دائماً يسمع في السوق آخر الأخبار وكان يُسمح له بنقل هذه الأخبار إلى مسامع والده أولاً بالرغم من أن الخدم عرفوها أيضاً. ففي وقت الغداء، كان إسماعيل هو الشخص الذي يُدعى للجلوس إلى جانب والده لينقل له كل ما رآه واختبره. كان يشعر بالتميُّز خلال هذا الوقت وهو يردد لوالده كل ما فعله وتعلّمه في ذلك اليوم.

لا، لم يكن هناك أي داعٍ لأن يشعر إسماعيل بالضجر. وبالرغم من أنه كان حُراً في ممارسة أي عمل حقيقي إلاّ أنه كان يستمتع بمراقبة الخدم، وكثيراً ما كان يقلِّد حركاتهم مما كان يثير ضحكهم أحياناً، خاصة عندما كان يبدأ بمطاردة الغنم الشارد.

وكان إسماعيل يحب الركض. فقد كان عدَّاءً ماهراً خاصة على الطرق المُستوية ولكن التلال الوعرة كانت تجربة مختلفة تماماً. في إحدى المرات تعثَّر وسقط واصطدم رأسه بصخرة بقوة شديدة ونزف الدم من رأسه بغزارة وأصرَّت سارة أن تعتني به بنفسها ولم تسمح لأحد من الخادمات أن تلمسه ولا حتى هاجر.

عندما تراءت هذه الحادثة لإسماعيل اعتصر قلبه ألمٌ شديد. ففي ذلك الوقت كانت أمه على استعداد لفعل أي شيء من أجله، في حين كانت هاجر مجرّد شخصاً هامشياً. لكن الآن! يبدو أن الأدوار قد انقلبت. إذ تبقي أمه مسافة كبيرة بينها وبينه وهو يشعر بأمان أكبر بوجود هاجر، والدته.

تذكّر إسماعيل ضيوف أبيه وإطراءهم عندما كانوا يقولون لإبراهيم: «يا له من شاب ذكي. سيكون ابنك خَلَفاً ممتازاً لك.» كانت تلك الأمور تغمره بسعادة جمّة. شعر إسماعيل بالتشويش فيما كانت مختلف الأفكار تدور في ذهنه فمن جهة هو الابن البِكر الذي سيأخذ مكان أبيه عندما يكبر، لقد تعلّم الكثير وكان أبوه قد بدأ بتسليمه بعض المسؤوليات البسيطة، ومن جهة أخرى قال الله أن أخيه غير الشقيق إسحق سيرث الأرض التي يسكنونها وسيتبارك كل العالم بسبب إسحق. وبولادة إسحق الغريبة تم تأكيد أهمية ما كان الله قد قاله مسبقاً.

لكن ماذا عنه؟ ما هي خطة الله لحياته؟ ما الذي سيحدث له الآن بعد أن تغيَّرت معاملة سارة له ثانية؟ حين كانت حُبلى بإسحق كانت علاقة سارة بإسماعيل تواجه التحديات، وبعد ولادة إسحق تحسّن الوضع لفترة، لكن الآن، عادت لمعاملته بعِدائية متزايدة ولم يعد بالإمكان إلقاء اللوم على الحَمْل.

فجأة، خطر لذهن إسماعيل فكرة قاتمة ألقت ظلالها على فكره كسحابة سوداء **إنها تعاملني كعبد بدلاً من أن تعاملني كابن! إنها لا تراني ابناً لها بل تنظر إليّ كأحد ممتلكاتها!** وفي تلك اللحظة تملّك إسماعيل الغضب وبدأ يفكّر بطرق للانتقام. في ذات اللحظة خطر له خاطر آخر. هل يتخيّل الأشياء؟ يبدو وكأن صوتاً هادئاً وثابتاً يتكلّم في قلبه: «لن تكون عبداً وإنماً رجلاً حرّاً.» ذكّرته تلك الكلمات بمشورة والدته التي علّمته بأنه سيكون «إنساناً كحمار وحشي» وكان هذا هو وعد الله له قبل ولادته؟ شعر إسماعيل بسلام لا يوصف في قلبه مما جعله يتخلّى عن غضبه.

مع مرور الزمن وتوالي المواسم المطرية ومواسم الجفاف معلنة عن مرور السنوات حان الوقت لحَدَث جديد في حياة إبراهيم وعائلته. ومع بزوغ أشعة الشمس فوق قمم الجبال بدأت الحياة تدب في المخيّم وبدأ الجميع بالتحضير ليوم مميز.

«صباح الخير» حيّا إسماعيل أباه أثناء دخوله إلى مجلس الرجال «كيف حالك؟»

«لله المجد يا بني، أنا بخير» أجاب إبراهيم بابتسامة مرتسمة على وجهه.

«تبدو متعباً هذا الصباح، هل حدث شيء في الليلة الماضية؟»

«لا، كان كل شيء هادئاً»

«نعم، لكنك لم تنم جيداً، أليس كذلك؟»

قدَّر إبراهيم نفاذ بصيرة إسماعيل، فالصبي يستشعر مباشرة فيما إذا كان هناك أمر خارج نصابه الطبيعي مما يجعل إبراهيم يرى نفسه في الصبي. فبفضل فِطنته تمكّن من مواجهة الكثير من المشاكل التي طرأت خلال حياته وإيجاد حلول لها.

يفضي إبراهيم بقوله: «شعرت بالأرق الشديد الليلة الماضية بعد أن رأيت حُلماً مزعجاً سرق النوم من عينيّ»

«هل أنت قلق حيال شيء يا أبي؟» استفسر إسماعيل «أليس كل شيء مُعَدَّاً للوليمة؟ ربما يمكنني مساعدتك في إنجاز بعض الترتيبات النهائية»

«لا أعرف يا بني! هذه الأحلام لا تأتي إلا عندما أواجه المصاعب. أشعر بهاجس عن إعلان من الله أشبه بتحذير لكنه لم يوضِّح الأمر لي بعد. هيا بنا، دعنا نذهب لتناول الإفطار.»

رافق إسماعيل أباه مبتسماً نحو حلقة الرجال الجالسين قرفصاء على الأرض استعداداً لتناول الطعام واحتلّا مكانهما بينهم أمام أطباق البيض المقلي الساخن وسِلال الخبز الطازج.

في ذلك المساء أحرزت الوليمة نجاحاً باهراً فالجميع مبتهجون وهم يصغون لإبراهيم وهو يروي لهم للمرة الألف قصة الزوّار الثلاثة ووعد أحدهم له بأن تحمل سارة ابناً. بالرغم من أن الرجال سمعوا هذه القصة لمرات لا تُحصى إلى أن رواية اللقاء الإلهي تُذهلهم حتى هذه اللحظة. فالوعد المُعطى لسارة أمر هائل بالنسبة لهم فمجرّد أن يكون إبراهيم وسارة في صحة جيدة بالرغم من سنّهما المتقدمة يُعتبر أمراً غير مألوف بحد ذاته أما حَمل سارة كان بلا شك نتيجة تدخّل إلهي مباشر للإله الذي يعبده إبراهيم. امرأة في التسعينيات من عمرها تَلِد ... هذه سابقة لم تحدث من قبل، ولم يسمع بها أحد قط، ومع هذا فها هي تحيا بينهم ... دليل قاطع لحدوث المعجزة.

جلس إسحق إلى جانب والدته في مخدع النساء بهدوء مُحاطاً بأحاديث النساء وضحكاتهم ممن جئن لمشاركة سارة الاحتفال بفطام ابنها ودخوله مرحلة جديدة من حياته. الكثير من الأطفال لم يحتفلوا بعيد ميلادهم الثالث بسبب ضعف أجسادهم وقسوة الحياة البرية، لكن إسحق بقي بصحة جيدة أثناء فترة رضاعته، ليصل إلى بداية مرحلة الطفولة وسنوات المرح التي تميِّزها. وهذا كان مدعاة للدهشة خاصة وأن أمه وبالرغم من جمالها الأخّاذ كانت في الواقع امرأة مُسِنَّة.

نظرت سارة في وجوه النساء المجتمعات من حولها باعتداد وهي تسرد معجزة حَمْلها بعد أن وعدها الله بولد من صُلبها بالتفصيل الدقيق، ثم استرسلت بتفسير الأمور التي أعلنها الله بخصوص مستقبل إسحق. كانت النساء مأخوذات بالحديث لكن إسحق بدأ يشعر بالملل فحرّك رجليه الصغيرتين المكتنزتين نحو مدخل الخيمة في حين كانت بعض النساء يطبعن القبلات على جبهته مُعرِبات عن جمال الطفل الصغير، في حين أفشت سارة سرَّ الصغير «هذا هو وريثُ زوجي، فإسحق سيرث كل ممتلكات زوجي وكل قبائل الأرض ستتبارك بسببه.»

صادف مرور إسماعيل من جانب مخدع النساء بعد أن غادر مجلس الرجال ليقضي حاجته خارج المخيم في تلك اللحظة وسمع كلمات سارة الأخيرة، فشعر بالغدر وكأنها تطعنه بخنجر في ظهره وفكّر يا لها من امرأة فظيعة! ولم يتمالك نفسه من التلكؤ ليتسنّى له سماع الحديث الجاري وسمع إحدى النساء تسأل: «ماذا عن إسماعيل؟ ما هو ميراثه؟»

«حسناً، إنه ابن الجارية وعليه أن يكون ممتناً إن حصل على هدية» أجابت سارة.

بهذا، أكّدت سارة الأفكار التي كانت تراود إسماعيل لمدة طويلة، فهي لم تعد تهتم له على الأطلاق. ورأى في تلك اللحظة إسحق يقفز أمام الخيمة، فتملّكته الغيرة. هو السبب لكل هذا الأسى الذي أنا فيه ثم سمع النساء يغدقن بعاطفتهن على إسحق ويولينه اهتمامهن وفي وطأة غضبه ركل أخيه الصغير في بطنه مما أسقطه إلى الوراء ضارباً رأسه بالأرض بشدة فأجهش بالبكاء.

لاحقاً في ذلك المساء، بعد هبوط الليل واستغراق الجميع إلى النوم استذكر إبراهيم وسارة أحداث ذلك اليوم مسرورين من الاهتمام الذي حظيا به من أصدقائهم. وشارك إبراهيم مع سارة الفرصة الرائعة التي نالها ليخبرهم عن عظمة الله. «بعض جيراننا أحضروا معهم أصدقاء لهم من منطقة أخرى ممن سمعوا عنا ولم يصدِّقوا الأمر، عجوزان ينجبان ابناً، طفلاً سليماً مُعافى، دون عَيب أو إعاقة، فهم يعرفون أن هذا كان أمراً مستحيلاً بدون مساعدة الآلهة فأخبرتهم عن الله خالق السماء والأرض.»

ابتسمت سارة في وجه زوجها إزاء محبته لله فهي أحياناً تتمنى لو كانت تشعر بذات المحبة وذلك الشعور بالثقة المطلقة. لكنها مقتنعة أن العالم قاسٍ وأن على المرء أن يدافع عن نفسه، وإلا فإن الأمور ستسير من سيء إلى أسوأ. ولهذا كانت تشعر بحاجة ماسة لاطلاع زوجها على أمر ما.

انتظرت سارة بصبر حتى أنهى إبراهيم حديثه عن كل مجريات اليوم. وحالما انتهى من كلامه استدارت نحوه: «ما الخطب؟ لماذا أنتِ هادئة بعد هذا اليوم الرائع الذي أعطانا إياه الله؟» ابتلعت سارة ريقها.

أجرت سارة الحديث مع زوجها في ذهنها مئات المرات لكنها وجدت صعوبة بالغة في فتح الموضوع. ثم انفجرت بعد أن غلبتها مشاعرها صارخة: «يا إبراهيم، حبيبي، هنالك أمر يزعجني منذ مدة طويلة.»

«أخبريني ما هو، أنا أحبك»

بدأت سارة بالبكاء ليس لأنها حزينة بل لأنها غاضبة وهي تدرك تماماً ضعف زوجها أمام دموعها المنهمرة. وصَدَق حدسُها إذ شدّها إبراهيم نحو صدره فور رؤيته لدموعها وضمّها إليه بشدة.

«إسماعيل آذى إسحق مرة ثانية. الأمر يزداد سوءاً في كل مرة.»

سَمع إبراهيم عما حدث. وهو يفهم التوتر المتصاعد بين زوجته وإسماعيل في الآونة الأخيرة. لطالما عامله ابنه باحترام وإجلال لكن موقف إسماعيل تغيَّر مؤخراً تجاه أخيه إسحق. وكان إبراهيم يتعاطف مع إسماعيل فابنه أصبح مراهقاً يتحدّى الحدود الموضوعة له، كما أنه أصبح مؤخراً يغادر المضارب مع بعض الخدم مما فتح له المجال لرؤية عائلات كثيرة من الشعوب المجاورة وملاحظة طريقة تربيتهم لأطفالهم ومعاملتهم لهم. وكان هؤلاء الأطفال يتحمّلون الكثير أكثر من إسحق.

أكملت سارة روايتها باكية: «لا أريده أن يعرِّض إسحق لأذىً جدّي، علينا أن نحمي الابن الذي أعطانا إياه الله!»

وافقها إبراهيم تماماً بالرغم من أنه لا يعتقد أن الأمر بتلك الخطورة التي تصوِّرها زوجته، فإسماعيل سيكبر قريباً وينضج. ولكن من ناحية أخرى، تلك لم تكن الحادثة الأولى وفي الحقيقة فإن الوضع يسوء أكثر في كل مرة.

في غمر دموعها تحدّت سارة زوجها الغارق في أفكاره بإصرار «لا يمكننا المجازفة. لا يوجد سوى حل واحد: يجب على هاجر وإسماعيل أن يغادرا.» نطقت ما في قلبها أخيراً وشعرت بالارتياح بعد أن استجمعت شجاعتها أخيراً وقالت ما أرادت قوله منذ زمن بعيد.

راقبت سارة زوجها باهتمام ولاحظت بانعكاس الضوء الخافت الصادر من المصباح الزيتي التجاعيد التي ارتسمت على جبهته والتقت عيناها بعينيه المتّقدتَين بوميض الغضب. تعرف سارة جيداً أن إبراهيم دائماً يواجه الظلم بالغضب الساخِط.

حافظ إبراهيم على رباطة جأشه لكن صوته كان يرعد بالعزم. «هذا لن يحدث أبداً. إسماعيل ابني البِكر وكان أول من اختتن.» ثم أكمل بصوت أهدأ قليلاً: «احرصي على معاملته بلطف فالصبي بحاجة لمحبتك»

حاولت سارة الدفاع عن نفسها لكنها أدركت جيداً أن زوجها مصمم على إبقاء إسماعيل قريباً منه. تنجح سارة أحياناً في جعل إبراهيم يفعل ما تشاء عندما تستخدم فتنتها الساحرة لكنها لم تحقق مرادها هذه المرة. بعد قليل نفخ إبراهيم على المصباح الزيتي وأطفأ شعلته ثم سحب الغطاء الصوفي فوق كتفه. فاستلقت سارة في الظلام الحالك وطلبت من الله أن يُقنع زوجها ثم غرقت في نوم عميق فيما فارق النوم عيني إبراهيم تاركاً إياه مستيقظاً. فهو يشعر كمن علق بين المطرقة والسندان. فهو يحب ابنه الكبير كثيراً لكنه في ذات الوقت لا يريد أن يتعرّض ابنه الأصغر للأذى. ماذا ينبغي أن يفعل؟

بدأ إبراهيم باستذكار الحلم الذي راوده في الليلة السابقة فيما استلقى على ظهره في فِراشه المريح شاعراً بالدفء تحت الأغطية الثقيلة لكن غلبه الانزعاج الذي شعر به عندما استيقظ في ذلك الصباح وصرخ في قلبه: «يا رب، أرجوك تدخّل! ساعد سارة وإسماعيل على العيش معاً بسلام.»

٦ المياه الحية

مع اتضاح نور الصباح وانحسار ظُلمة الليل لبلوغ الفجر المبكِّر تقلّب إبراهيم تحت الأغطية. بالكاد غمض له جفن طوال الليل. لقد كلّمه الله في عُمق الليل وكانت الكلمات التي قالها له تتردد في ذهنه: "نفِّذ ما طلبته منك سارة» و»سأجعل من ابنِ أَمَتِك شعباً عظيماً.»

راودته كل أنواع الأفكار المزعجة، كيف يطلب منه الله أمراً كهذا؟ كيف يطلب منه أن يُبعد ابنه؟ كيف يمكنه أن يعطيه ابناً ثم يأخذه منه؟ لمَ لا يستجيب الله لصلاته؟ لو فعل ذلك لأصبح كل شيء على ما يرام. ما يطلبه الله منه لا يبدو عَدْلاً. أليس الأمر صعباً بما يكفي بالنسبة لإسماعيل أن لا يكون هو ابن الموعد بل أخيه إسحق؟ وفوق كل ذلك، عليه أن يُبعَد؟ هذا رفضٌ مُضاعَف!

انقضت ساعات طويلة جداً وإبراهيم يصارع بأفكاره وعواطفه وغضبه نحو الله. حاول جاهداً أن يُطلق إسماعيل ويسلِّمه ليَدَي الله لكنه لم يتمكّن من ربط صفات الله بذلك الأب المُحِب. فأيُّ أبٍ مُتَفانٍ يرسل ابنه بعيداً؟ الله هو القدوة المُطلقة للعناية، فكثيراً ما تأمّل إبراهيم في البهائم وهي تُظهر محبتها الفائقة في عنايتها بصغارها، فحتى العصافير الصغيرة تُطعِم صغارها باهتمام بالغ وتحميهم من كل الضواري المفترسة. وكما تُظهر الخليقة بأسرِها أهمية وروعة الاهتمام بالأبناء كذلك يحب إبراهيم ابنه كثيراً ويفتخر بذكائه ورقّته. حاول إبراهيم أن يطرد فكرة إبعاد ابنه من رأسه إلا أن صوت الله كان واضحاً جداً أكثر من أي وقت مضى.

فيما كان إبراهيم مستغرقاً بأفكاره، رفع عينيه نحو قماش الخيمة فوقه ورأى بعض الخيوط المعقّدة في النسيج ذكّرته بعملية الختان التي خضع لها فقد كان مستلقياً في فراشه على الأرض حينها مركِّزاً نظره على نسيج قماش الخيمة ليصرف فكره عن الألم. سمح إبراهيم لأفكاره بالتأمل بتلك المناسبة فقد كان الختان قفزةَ إيمانٍ عملاقة إذ لم يعلم أحد في ذلك الوقت ما قد تكون عليه النتائج.

لكن الله بارك طاعتنا بشكل واضح أدرك إبراهيم ذلك فجأة، فأنا لم أفقد رجولتي وحملت سارة كما وعد الله تماماً. إن كان الله قد اعتنى بنا في ذلك الوقت فإنه سيعتني بنا الآن. بدا وكأن إبراهيم أدرك الإجابة على تساؤله حول هذا الأمر. كان يعرف في باطنه أن طريق الله هو الأفضل فقرر أن يطيع الله بالرغم من ألمه الشديد، فنهض فوراً من فراشه وأيقظ إسماعيل وأطلعه على ما قاله الله.

مع تسلل أولى أشعة الشمس فوق رؤوس الجبال لتلقي بظلالها على الوادي في الأسفل كانت الجارية وابنها يغادران المخيّم. انسكبت دموع هاجر بغزارة وكان قلبها مفطوراً إزاء سَلْب مستقبلها ومستقبل ابنها. **الشقي يبقى شقياً مهما فعل وأنا سأبقى جارية هكذا** فكّرت هاجر في نفسها **لقد وعد الله بكل تلك الأشياء العظيمة لكن شيئاً منها لم يتحقق. الأمر ميؤوس منه، فحتى إبراهيم لم يُعطِنا شيئاً واحداً برغم ثرائه الفاحش، أبعدنا بلا أي شيء سوى بقِربة ماء ورغيف خبز لا غير. كان بإمكانه أن يعطينا دابّة على الأقل لنركبها أو بعض المال لنؤسِّس به حياة جديدة في مكان آخر. يا له من رجل أناني! يدّعي أن الله تكلّم معه! حسناً، إن كان إلهه قد أمره بأمور كهذه فأنا لم أعد أبالي مطلقاً.** انطلقت في طريقها مغتاظة. إلى أين؟ ما الذي يهم؟ تمنّت الموت في قلبها

أمام الحياة التعيسة التي تنتظرها! لكن القدمين اللتين تتبعان خطاها ذكّرتها بابنها، فهو بأمسّ الحاجة إليها الآن.

تنازعت المشاعر في قلب هاجر، قلب الأم يريد أن يؤمّن لابنها الأفضل للمستقبل لكن إحساسها بالظلم يشير عليها بأنه السبب في مأساتها. لو كان سلوكه مختلفاً لما حدث كل هذا ولكانا عاشا حياة رغيدة مع إبراهيم. لم تتوقّع أبداً أن يلجأ سيدها لهذا الحل. استبعاد ابنه الخاص! أي أب قد يفعل أمراً كهذا؟ «ليس إبراهيم سوى رجل منافق!» قالت هاجر لابنها «يدّعي أنه يحبك وأن إبعادك يؤلمه كثيراً، ويحرمك في ذات الوقت من حضوره، إنه لا يطبِّق تعاليمه التي يعلِّمها للآخرين!»

تفهّم إسماعيل الألم الذي تختبره أمه فهو يشاركها إيّاه أيضاً فعيناه تشعّان بالحزن الذي يملأ قلبه لكنه لا يريد أن يبكي بل يريد أن يكون قويّا من أجلها لذا حاول جاهداً أن يحبس الدموع في مقلتيه لئلا تراها والدته. ما كنا لنكون في هذا الوضع لو أنني لم أركل إسحق. ما كان يجب عليّ أن أركله. كم كنتُ أحمقاً لعدم التحكّم بأعصابي أكثر. لكن سارة كانت لئيمة جداً. أي شخص كان ليتصرّف مثلي تماماً. في تلك اللحظة استقرّت كلمات هاجر في ذهنه. أبوه منافق؟ كيف وصلت إلى هذا الاستنتاج؟ إسماعيل أيضاً لا يفهم سبب استبعاد أبيه له لكنه يتمسّك بالصورة الجميلة التي يحملها لأبيه في قلبه. «أمي، إن أبي يحبّني حقاً، أنا متأكد من ذلك. سيتراجع عن قراره وسيرسل رجاله وراءنا لإعادتنا إلى الديار.“

”أتعتقد حقاً أنه سيفعل ذلك؟ طبعاً لاّ“ أجابته هاجر بحدّة. ”كما تعلم، لقد هربت عندما كنتُ حُبلى بك وقد أخبرني عند عودتي أنه أرسل رجالاً للبحث عني، لكن لو كان ذلك صحيحاً فعلاً لكان الرجال وجدوني.“ أثناء حديثها أدركت هاجر أن ما قالته لم يكن صحيحاً تماماً إذ خلال الأيام الأولى من هروبها بذلت جهدها لتتحاشى الطرق الرئيسية والتزمت بالطرق الجبلية حيث كان الرعاة يرعون الماشية. وقد أخبرها الخدم لاحقاً عن الوقت الطويل الذي أمضوه في البحث عنها وكم كانت مسرورة لسماعها ذلك.

فيما فكّرت هاجر بتلك الأيام تذكّرت لقاءها بالرجل الغريب والوعد الذي وعدها به الله عند البئر بأن يكون إسماعيل أمة عظيمة ورجلاً حرّاً مستمتعاً بحريّته كالحمير الوحشية المنتشرة حولهم. أنبأت ولادة إسماعيل بسنوات مليئة بالسعادة حيث عاملتها سارة خلالها بلطف. ورغم أنها بقيت أَمَة خادمة إلا أن نصيبها من الأعمال قلَّ كثيراً وسُمح لها برعاية إسماعيل وتربيته. كانت ممتنة جداً لأن الله قد كلّمها وأنها أطاعت صوته وعادت إلى سيدتها.

”أمي“ كسر إسماعيل الصمت المطبق عليهما. «كيف يمكن أن يعدك الله أنني سأكون أمّة عظيمة ثم يرفضنا؟ هل خسرتُ ذلك الوعد بسبب غيرتي من إسحق؟»

”لا أعرف يا إسماعيل. فالأمر غامض بالنسبة لي أيضاً. هل تصدِّق ما قاله إبراهيم لي هذا الصباح؟ فحسب قوله، جدّد الله له وعده بأنه سيجعل منك أمّة عظيمة» غلّف الشك صوتها إذ لم تعد تثق بإبراهيم كما كانت تفعل سابقاً. كيف استطاع أن يبعدهما على هذا النحو؟ وبما أن الله هو الذي أمره بفعل ذلك فهي لم تعد تصدِّق الله أيضاً. إنها تشعر بالهجر وبأنهما تخلّيا عنها وقررت بأنها ستغيِّر مصيرها كيفما تشاء من الآن فصاعداً. «إسماعيل، إنسَ أمر إله أبيك. لا معنى من خدمة هذا الإله فهو يفعل ما يشاء، يحبّك في يوم ويرفضك في اليوم الذي يليه.»

لم يتفّق إسماعيل مع والدته لكنه التزم الصمت إذ لم يكن من الحِكمة أن يعارضها في هذا الوقت.

اتّجها نحو الجنوب وكانت كل خطوة يأخذانها تبعدهما أكثر عن كل ما يعرفانه وكل مَن وثقا به. في وقت الظهيرة بدأت معدة إسماعيل تهدر جوعاً فجال ببصره حوله وإذا به يرى شجرة تين بريّة على قمة إحدى التلال فاقترح على والدته: "أمي، سأذهب لقطف بعض الفاكهة، فهي ستعيننا أفضل من مجرد الخبز الجاف.»

"فكرة جيدة يا بني، دعني أساعدك" أجابته وهي تتبعه متشبثة بجهد في الحافة المنحدرة للتلة الشاهقة. كانت الشجرة مليئة بحبات التين الغنية بلونها النضر وكان واضحاً أن الطيور وجدت طريقها للغذاء من بعض الحبات الناضجة وسريعاً بدأت هاجر وابنها بالاستمتاع بلذة طعم الفاكهة النضرة. استمر إسماعيل بالأكل النهم حتى بعد انقضاضه على جميع حبات الفاكهة الناضجة وبدأ بالتهام الحبات الفجّة.

انتبهت هاجر له وحذّرته: "انتبه يا إسماعيل، فهذه الحبات البيضاء قد تجعلك تشعر بالمرض»

"أوه يا أمي، مَن يدري متى سنجد شيئاً آخر نأكله؟ إنني جائع جداً." أدركت هاجر أن جدالها سيكون بلا جدوى فتركته لشأنه لكن في نهاية الأمر بدأ إسماعيل يشعر بالألم يعتصر معدته بعد أن أكل كمية كبيرة جداً أجبرته على التوقف عن الأكل.

بعد أن شربا بعض الماء ونالا قسطاً من الراحة استكملا مسيرتهما نحو الجنوب. لكن بعد بضع ساعات زاد الألم في معدة إسماعيل وشعر بحاجة لقضاء حاجته فاتجه نحو صخرة كبيرة ورفع رداءه وجلس القرفصاء حتى شعر بالراحة ثم نظّف نفسه بعناية مستخدماً حجراً صغيراً التقطه عن الأرض أمامه. لكن الأمر لم ينتهِ، فقد ازدادت حدّة الانقباضات في معدته وسريعاً ما تحوّل المغص إلى إسهال شديد وأصبح يمشي بصعوبة إلى أن بدأت الشمس تغيب وراء قمم الجبال في الأفق وأصبح الجو مظلماً، فبحثا عن مأوى يقضيان فيه الليل.

شعر إسماعيل بالظمأ الشديد فأمسك بقِرْبَة الماء وفتحها.

"احذر من أن تشرب كمية كبيرة, فهذا كل ما لدينا من ماء، ولا نعرف متى سنصل إلى بئر أخرى لملء القِربة»

"لكن يا أمي، يجب أن أشرب وإلا فإن الأمر سيسوء أكثر" دافع إسماعيل عن نفسه.

"وماذا سنفعل عند نفاذ الماء منا؟ عندها لن نتمكّن من الاستمرار ولن أتمكّن من الاهتمام بك أيضاً» أجابته هاجر بقلق.

"لا تقلقي يا أمي، الله سيعتني بنا. لقد وعد بذلك» استخلص إسماعيل بثقة وهو يرتشف الماء بشراهة.

"يا لك من أناني مغرور! مثل والدك تماماً. تفعل ما تريد فعله ثم تقول أن الله سيهتم بكل شيء."

تضايق إسماعيل من السلبية التي لازمت والدته منذ بداية مشوارهما. "لقد أخبرتِني بنفسك أن إسمي سيكون إسماعيل أي «الله يسمع» سواء صدَّقتِ ذلك أو لم تصدِّقي."

لم يخطر هذا الأمر في فكر هاجر منذ مدة طويلة. «هذا صحيح» اعترفت بتردد لكنها أضافت دفاعاً عن نفسها: "لكن علينا أن نبذل أقصى جهودنا وإلا فإن الله لن يكون مُلزَماً بفِعل أي شيء لنا. لقد توجَّب عليّ أن أعود أدراجي إلى سارة فيما استمرت هي بإساءة معامَلتي»

لم يشأ إسماعيل أن يعارض أمه، فهو مُرهَق كثيراً وحالته الصحية أسوأ من أن تسمح له بالدخول في جِدال معها. ولم يمضِ وقت طويل قبل أن يغطّ كليهما في نوم عميق وهما يلتحفان نجوم السماء.

استأنف الاثنان طريقهما في الصباح الباكر بالرغم من الإرهاق الواضح على وجه إسماعيل وجسده كونه اضطر للسهر أغلب الليل بسبب الإسهال المتكرر والمغص الشديد الذي لم يزل يعذبه بإزعاج لا يلين مع ارتفاع حرارته والحمّى التي بدأت تستشيط به. سار متباطئاً في أثر خطوات والدته الباحثة عن بئر ماء لتخفّف من معاناة ابنها. أمسك إسماعيل قربة الماء ليطفئ ظمأه ويرطّب حنجرته المستعرة من العطش لكنه لم يجد فيها قطرة ماء واحدة يستقيها. حاول إسماعيل مجاراة والدته بسحب قدَمٍ أمام الأخرى بصعوبة بالغة إلى أن انهار وسقط أرضاً.

تطلّعت هاجر إلى الوراء وصرخت نحو ابنها في رجاء: "إسماعيل، أرجوك لا تستسلم." لكن إسماعيل لم يُجِب سوى بإصدار أنين ضعيف أخاف هاجر لقلّة حيلتها. ماذا يمكنها أن تفعل الآن سوى أن تصرخ مستغيثة: "النجدة! ساعدونا!» لكن صدى صوتها ارتطم بالصخور العارية وارتد إليها عدة مرات قبل أن يخبو متشتتاً في صمت الوادي دون أي رد.

أعادت هاجر الكرّة عدة مرات قبل أن تسلِّم لفكرة عدم جدوى الصراخ في طلب المساعدة فلا أحد في هذا الوادي السحيق سواها وابنها المُنهَك مما فتح باباً في قلبها للخوف. سخَّرت هاجر ما بقي لها من قدرة لجرّ إسماعيل نحو الظل لتحميه من أشعة الشمس الملتهبة؛ فانحنت نحوه ولفّت ذراعيها حول جذعه المتهاوي ولفّت رقبتها بذراعه المرتمية على كتفها علّها تحميه من السقوط وجرّته بعناء كبير نحو شجيرة كبيرة رأتها في الأفق ومدّدته في ظلِّها.

كان أنين إسماعيل يضعف شيئاً فشيئاً، بدا الأمر وكأنه يحاول قول شيئاً ما، لكن هاجر لم تتبيّن سوى القليل من الكلمات. مالت بجسدها نحوه، لقد كان وجهه شاحباً وبدا وكأنه يهلوس من شدة الحمّى ووضعت أذنها بقرب شفتيه وأصغت بانتباه لكنها لم تميّز من كلماته سوى «الله» و»أبي» و»الوعد» لكن بصعوبة بالغة.

خافت هاجر من حدوث الأسوأ وأدركت أن ابنها سيموت، فاغرورقت عيناها بالدموع وتهاوت إلى الوراء وأشاحت بوجهها لئلا ترى محنة ابنها الحبيب. ثم استدارت نحوه وطبعت قبلة حنونة على وجنته الملتهبة. «يا لك من ولد شقي، لماذا ينبغي أن تنتهي حياتك على هذا النحو؟» همست بهذه الكلمات وأسلمت نفسها للدموع ثم سارت مبتعدة عنه بضع خطوات.

انتحبت هاجر من البكاء في انتظار أن يتوقّف أنين ابنها الذي ما انفك يغرز سكيناً وراء الأخرى في قلبها في انتظار أن يلفظ إسماعيل أنفاسه الأخيرة. **كان عليّ أن أمنعه من أكل التين الفجّ. لا، إنها غلطة إبراهيم فهو الذي أبعدنا! لكن ذلك حدث بسبب سارة، تلك المرأة الخبيثة! لكن لا، في الحقيقة كل هذا حدث بسبب الله، لو لم يولد إسحق فحسب ...** فجأة، سمعت هاجر صوت أحد يناديها باسمها، بدا الصوت مألوفاً لديها. تلفّتت هاجر حولها بتعجُّب لكنها لم ترَ أحداً. «مَا لَكِ يا هاجَر؟» قال الصوت. بدا أن الصوت صادر من أعلى لكن الصحراء منبسطة في هذا المكان ولا ترى هيئة الجبال إلا في الأفق البعيد وراء سديم الغبار.

رفعت هاجر نظرها إلى أعلى ولاحظت وجود سحابة فوق رأسها مباشرة، كانت السحابة تبدو أكثر بياضاً من غيرها من السحب وأكثر لمعاناً من أي سحابة أخرى في السماء. لقد سمعتُ هذا الصوت من قبل. وفجأة تذكرت، إنه صوت الرجل الغريب الذي التقته عند الواحة في الماضي، ذاك الذي أخبرها أنها ستلد ابناً. لكن أين هو الآن؟ هل أخفى نفسه وراء تلك السحابة؟

"يا رب، ليس لدينا ماء، وإسماعيل يحتضر. لم يعد بيدي حيلة، لقد انتهى كل شيء»
دوّى الصوت الذي سمعته هاجر منذ عدة سنوات بقوة من السماء: "لا تخافي، فالله قد سمع الولد يبكي هناك»[١٢]

تذكّرت هاجر المعنى العميق لاسم إسماعيل وكم كان حقيقياً! ... فالله يسمع. وعندما لم تتمكّن هي من فهم الأنين الذي كان يتمتم به ابنها في ضعفه سمعه الله. أكمل الصوت: "قومي! أَنْهِضي الولد، وأمسكيه جيداً من يده، فأنا سأجعله أمَّةً عظيمة.» [١٣]

ملأ الرجاء قلب هاجر عند سماعها لتلك الكلمات لم يتخلّى الله عني بالرغم من كل شيء لكن لم يزل الخوف والشك يملآن قلبها ما الذي يمكن أن يتغيَّر الآن؟ لماذا عليّ أن أرفع من آمال الصبي؟ لا يوجد ماء في الجوار كما لا توجد أي سُحُب ممطرة في الأفق. تقلقلت في داخلها بين الأمل واليأس، بين الإيمان وعدمه.

تَعبُ جسدِها وجفافُ فمها وشفتيها المشققتين جعلوا من المستحيل بالنسبة لهاجر أن تنسى ظمأها الشديد فإن ماتا كليهما سيرتاحان من المعاناة التي يقاسيان منها لكن الله وعدها بمستقبل مشرق بامتياز أن تكون والدة شعب عظيم. صارعت في نفسها بمرارة لكن في النهاية قررت أن تعطي الله فرصة فصلّت بصمت: "لا أعرف كيف سيتحقق هذا لكنني أريد أن أثق بك، أريد أن أصدِّق أنك ستحفظ وعودك وتحققها بالرغم من أنني لا أرى فرصة لحدوث ذلك."

ورفعت ذراع ابنها مرة ثانية ووضعتها على كفتها ورفعته برفق وفيما عدَّلت وقفتها ونصبت قامتها رأت شقّاً في الأرض بالقرب منها. هذا الشقّ يبدو كبئر ماء! وضعت إسماعيل أرضاً وركضت بأقصى سرعتها نحو البئر وأمالت جسدها فوق الحافة ورأت ما لم تصدّقه عيناها، لقد كان نبع ماء صافٍ ومنعش. كيف لم تره من قبل؟ لم يكن البئر عميقاً واستطاعت أن تغرف منه بسهولة فائقة بعد أن كوّرت كفَّيها وتذوّقت الماء ببضع رشفات واكتشفت أن الماء عذب ليس فيه أي أثر للملوحة أو المرارة. لم تذكر هاجر أنها ذاقت ماء عذباً كعذوبة هذا البئر في حياتها كلها.

خلال دقائق، ملأت قربة الماء وعادت إلى إسماعيل، وعند ملامسة السائل المنعش لشفتيه فتح إسماعيل عينيه وابتسم لوالدته وكأنه يقول: "أترين يا أمي، الله يسمع حقاً ويحفظ وعوده.

١٢ تكوين ٢١: ١٧
١٣ تكوين ٢١: ١٨

٧ عمّانوئيل – الله معنا

تعافى إسماعيل بسرعة كبيرة واستطاع أن يستكمل مسيره في اليوم التالي مع والدته لكنه أراد أن يعرف وجهة الطريق التي يسلكانها فاستفسر من والدته: «إلى أين نحن ذاهبان يا أمي؟»

عادت هاجر إلى الواقع عند سماعها سؤال ابنها بعد أن كانت غارقة في أفكارها الخاصة بعد أن طردهما إبراهيم وهي الآن لا تريد أن تراه ثانية بعد أن رفضهما بتلك الطريقة الفظيعة، كما أنها لا تريد أيَّ شيءٍ يُذكِّرها به لذا اختارت الابتعاد عن رُعاة الغنم قدر استطاعتها. فعادت إلى أرض الواقع عند سماع سؤال ابنها فشرحت له خطتها.

عندما أنهت والدته كلامها سأل إسماعيل: «هل سنقطع كل هذه المسافة في وسط الصحراء؟»

«لا، لا أعتقد ذلك. لا داعي للتوغّل أكثر كي لا نواجه أخطاراً قد لا نستطيع درؤها.» وفكّرت في نفسها يا لروعة أن يكون إسماعيل شاباً ناضجاً ثم سألته: «ماذا تقترح أن نفعل تالياً؟»

«حسناً، الماء في هذا البئر عذبٌ للغاية، إن تمكنّا من إيجاد الطعام سنتمكّن من البقاء هنا لمدة طويلة.»

«هذا صحيح» وافقته هاجر. «أتعرف؟ دعنا نبحث في الجوار عن طعام.»

«قد أتمكّن من اصطياد غزال بريّ أو حمار وحشي.»

انفجرت هاجر بالضحك

«ماذا؟ هل قلت شيئاً خاطئاً؟»

«أبداً، لكنك ذكّرتني بما قاله الله عنك عندما ذكرتَ الحمار الوحشي يا بُني.»

ضحك إسماعيل أيضاً. فمنذ لقائهما مع الله الذي كلّمهما من العدم بدآ يشعران بالراحة والاطمئنان. لقد أثبت الله لهما أنه لم يرفضهما بل استجاب لصلاة إسماعيل البسيطة عندما كان يهذي من جراء الحمّى. معرفتهما بأن الله يرى ويسمع كل شيء ملأتهما بالرجاء تجاه المستقبل.

ذات يوم، اندفع إسماعيل إلى الخيمة منقطع الأنفاس صارخاً بحماس شديد «أنظري ما الذي اصطدته اليوم يا أمي» وعرض على أمه صيده الثمين.

«عظيم! رائع فعلاً! أنت صياد ماهر حقاً يا بُني.»

امتلأ صدر إسماعيل بالفخر بسبب كلام والدته ورد فعلها المشجِّع الذي ملأ قلبه بالفرح.

ترتَّب عليهما العمل بجد خلال الأشهر القليلة الماضية ليصنعا لهما حياة من العدم في وسط الصحراء. من حُسن حظهما أن إسماعيل تعلّم الكثير عن الحياة البرية من أبيه وكيفية تعقّب آثار الحيوانات في الرمال، ومعرفة اتجاه سيرها، واكتشاف مدى قُرْبها منه من خلال تفحُّص درجة جفاف المخلفات التي تتركها وراءها، فيعرف بذلك نوعية الحيوان الذي كان في ذلك الموقع، ومتى كان هناك، وتقدير المسافة التي قطعها مبتعداً

في تلك اللحظة، كما كان يميِّز حجم الحيوان ويقدر عمره بتفحُّص أغصان الشجيرات المتكسِّرة والآثار التي يخلِّفها الحيوان على سيقان الأشجار المترامية هنا وهناك.

بعد مدة ليست بقصيرة تمكّنا من جمع ما يكفي من جلود الحيوانات لتصنع منها هاجر خيمة يحتميان بها من شمس النهار الحارقة ويلتجآن بها من برودة ليالي الصحراء القارصة. وصنعا معاً جميع أنواع الأوعية والأدوات الخشبية. وبدأت تلك المنطقة بجانب البئر تبدو مثل مخيم صغير.

كما صنع إسماعيل بالتدريج مجموعة من الأقواس والسهام. ضحك إسماعيل في نفسه عندما تذكّر أول قوس ومجموعة سهام صنعها بما توافر لديه من مواد فهي تشبه الآن لعبة طفل صغير مقارنة بالقوس والسهام التي يصنعها الآن. كما اختلفت نتيجة ما يصيده بواسطتها بشكل ملحوظ.

ولأول مرة في حياته اصطاد غزالاً. فبعد أن كانت تهرب منه بسهوله بسبب دقة سمعها وسرعتها الشديدة وضعف أدواته التي كانت تضطره للاقتراب كثيراً منها مما يجعلها تجفل وتطلق العنان لأقدامها السريعة. لكن اليوم كان سهمي أسرع منها فكَّر إسماعيل بابتسامة ظفر مرتسمة على وجهه.

صنعت هاجر بمساعدة ابنها منصباً ذا قواعد ثلاثية من مجموعة من الأغصان الرفيعة الطويلة، وعلّقا عليه الحيوان من أرجله، ولم ينقضِ وقت طويل حتى كان لحمه يُشوى معلّقاً على عصا فوق النار المتقدة. قالت هاجر فيما كانت تدير العصا المعلقة فوق النار: «أتعرف شيئاً، من المدهش حقاً انك تعلّمت الصيد بهذه السرعة الكبيرة. لقد رأيت الكثير من الصبيان يكبرون في مصر وأرض كنعان لكنني لم أرَ أياً منهم يتعلم الصيد بالسرعة التي تعلّمتها أنت.»

«حسناً، أعتقد أن صيدي كان مميزاً اليوم, لكن أليس من الطبيعي أن أتحسّن مع الوقت؟»

«صحيح، لكن بهذه السرعة؟ ...» لم تنهِ هاجر جملتها لأنها تذكَّرت وعد الله لها بأن إسماعيل سيصبح أمة عظيمة واستخلصت قائلة: «أعتقد أن الله يساعدك بلا شك.»

«هذا ممكن بكل تأكيد، فأنا أطلب مساعدته على الدوام» أجاب إسماعيل بخجل.

«حسناً يا بني، إنه يستجيب لك، ليتمجّد اسمه!»

تحوّلت الشهور إلى سنين وانتقلت هاجر مع إسماعيل في إحدى السنوات إلى منطقة جديدة بعد أن تسبّبت الأمطار الشحيحة في هروب الحيوانات إلى مكان آخر، وقلّت غلّة الثمر التي تحملها في الأشجار. فبحثا عن مكان جديد ينتقلان إليه للنجاة من الجفاف. فانتهى بهما المطاف في بريّة فاران الواقعة على الساحل الشرقي من البحر الأحمر.

أصبح إسماعيل رجلاً بالغاً وبدأت أمه بالتفكير بأن الوقت قد حان ليجد لنفسه عروساً ليتزوجها. «لكن يا أمي، لا أريد زوجة من القبائل المجاورة لنا، إنهم لا يلقون بالاً بالله أو وصاياه وأنا أريد أن أبقى أميناً نحو الله.»

«أفهم ذلك يا بني لكن من أين سنجد لك زوجة مناسبة؟ فأقارب والدك بعيدون جداً عنا، ويستحيل علينا السفر إلى هناك. كما أنني أشك بأن أحداً من إخوة والدك سيرضى بأن يزوّجك ابنته بعد أن طردك والدك.»

«سأكون سعيداً بالزواج من فتاة وُلِدت في خيام أبي لأنها ستعرف معنى عبادة الله إله السماء والأرض وستشجعني على الإيمان به حتى خلال الأوقات الصعبة.»

«أفهم مدى أهمية ذلك بالنسبة إليك لكنك عندها ستضطر لاختيار أمَة من عبيد أبيك وبذلك ستربط نفسك للأبد بعالم العبودية. أنا مسرورة جداً لأن أمامك فرصة لمستقبل

مختلف الآن.» حين تفوّهت هاجر بهذه الكلمات أدركت فجأة أمراً سكن أفكارها منذ مدة طويلة من قبل لكنها استوعبته الآن فقط فأعلنت قائلة: «إسماعيل، أنت حر حقاً! وأنا كذلك! فقد أطلقنا إبراهيم أحراراً عندما أبعدنا، هذا رائع! لم أعي ذلك بهذا الوضوح من قبل!» وأشعّ وجه هاجر.

«الحمد لله. في الحقيقة لم يكن إبعاده لنا دون أي عطايا بالأمر السيء.» عندما تمتم إسماعيل بهذه الكلمات تحشرج صوته في حنجرته جعلته يبتلع ريقه عدة مرات. لطالما عرف أن أباه كان رجلاً صالحاً حتى عندما أصابت والدته الحقيقة بقولها أنه لم يطلب منهما العودة وبدا الأمر وكأنه نسيهما تماماً إلا أن الكلمات التي قالها في وداعهما كانت صادقة: «أحبك يا بني وسأحبك دوماً، تذكّر ذلك.»

احتفظ إسماعيل بهذه الكلمات في قلبه كوعد يتمسّك به كلما شعر بالرفض. أيضاً لم تعد ذكريات الماضي تطارده فعندما واجه الموت اعتنى به الله ذاته وخلّصه مما ترك أثراً عميقاً في نفسه. كما حدثت الكثير من الأمور العجيبة التي جعلته يشعر بالأمان والسلام الدائم.

«.. في مصر. ما رأيك بذلك؟»

عاد إسماعيل إلى أرض الواقع بعد أن كان مستغرقاً في افكاره. «آسف، ماذا قلتِ؟ كنت أفكِّر في أمر آخر.»

كرّرت هاجر فكرتها: «لا زال عندي بعض الأقارب الذين يمكن أن يساعدوني. يمكنني بكل تأكيد أن أجد لك زوجة مناسبة في مصر. ما رأيك؟»

ارتأى إسماعيل صعوبة في مناقشة هذا الأمر لكنه سأل والدته. «أليس أقاربك عبيداً أيضاً؟ كيف سيكون ذلك مفيداً؟»

رمقته هاجر بنظرة مليئة بالحزن، فهي ترغب أن يجد لنفسه زوجة جميلة وطيبة في حين أنها لا تصغر بالسن ولن تكون قادرة في يوم ما من أن تطبخ وتنظّف وتقوم بكل تلك الواجبات في المخيم لوحدها. «جاءتني فكرة!» قالت فجأة. «لقد جمعت تشكيلة ممتازة من الجلود فإن بعتهم ستحوز على ما يكفي من الأموال لدفع مهر ابنة أحد مالكي العبيد.»

لمعت عينا إسماعيل إزاء الخاطر الجديد الذي لم يفكر به من قبل، امرأة مصرية ستجد مكانها سريعاً بينهما فوالدته مولودة في مصر ونشأت هناك وهو بالتالي نصف مصري. أشعل الحماس فيهما وهما يخططان لرحلة هاجر إلى مسقط رأسها في حين يبقى هو للعناية بالدجاج والمواعز اللذين يملكانهما.

بعد بضعة شهور عادت هاجر ومعها فتاة حلوة ذات بنية قوية تناسب حياة البدو. بعد مراسم الزفاف، شكر إسماعيل والدته لإحضارها عروسه، فقد تفاجأ من السرعة العجيبة التي احتاجتها زوجته للتكيّف مع حياة الصحراء، من الواضح أن والدته اختارت له المرأة المناسبة.

حفظت هاجر كلمات ابنها في قلبها وشعرت بالسلام يملأها لأول مرة منذ سنوات عديدة. حياة الصحراء ليست بالحياة السهلة وكان عليها أن تعمل بجد وكد ومع ذلك فقد اختبرت مقداراً من الرخاء. «إسماعيل» همست بصوت منخفض فيما نظرت عميقاً ومطولاً في عيني ابنها. «أعتقد أن بركة الله لإبراهيم قد طالتنا.»

«بكل تأكيد يا أمي. ألا تذكرين ما الذي طلبه أبي من الله عندما وعده بابن آخر؟»

أصدرت هاجر صوتاً بصفق لسانها بسقف حلقها إشارة إلى أنها لا تعرف قصده الذي يرمي إليه ورمقته بنظرة حائرة.

«قال الله لأبي 'انظر لقد باركته'[١٤] لذا يباركني الله كل أيام حياتي منذ ولادتي» فسّر لها إسماعيل. «لهذا السبب نفسه لم أمت كما اعتقدتِ عندما مرضت.»

فجأة، أدرك هو أيضاً أن الله وفّر له الحماية طوال تلك السنوات في الصحراء فلم يحدث أنه مرض ثانية أو هاجمه حيوان مفترس فيما هلك كثيرون ببراثن تلك الضواري. لقد رأى حماية الله له بوضوح في عدة مواقف مرت عليه في حياته التي عادت إلى ذاكرته في تلك اللحظة، واغرورقت عيناه بالدموع. «الله معنا يا أمي، وهو يحبنا.» حاول جاهداً إخفاء دموعه إلا أن هاجر لمحت ترقرقها في عينيه مما جعلها تبكي أيضاً. تبقى لديها الكثير من التساؤلات غير المُجابة لكنها تعترف بالرغم من ذلك أن الله معهما حقاً.

قابل إسماعيل في بعض الأحيان بعض الرحالة من التجار عند ذهابه للسوق للمتاجرة ببضائعه مقابل الحبوب وبعض ضرورات الحياة الأخرى وكانوا ينقلون إليه بعض الأخبار عن أبيه.

وهكذا انتقلت إلى مسامعه أخبار انتقال أبيه إلى نفس المنطقة التي استقر فيها هو وهاجر. وفي ذلك المكان حارب أبوه أبيمالك ملك الفلسطينيين. فوجئ إسماعيل بهذه الأنباء لأنه لم يذكُر ولا مرة واحدة دخل فيها أبوه في خلاف مع أحد ما، فقد كان دائماً شخصاً متواضعاً يقدِّم يد المعونة للجميع. في إحدى المرات حدث نزاع بين رعاة الغنم الذين يرعون ماشية أبيه ورعاة غنم ابن أخيه البِكْر «لوط»، فأظهر أبوه كرماً كبيراً فبالرغم من كونه عم لوط وصاحب الأولوية باختيار الأرض الأفضل لنفسه إلا أنه ترك أمر الاختيار لابن أخيه الذي اختار الجزء الأفضل من الأرض لنفسه. لو كان إسماعيل مسؤولاً في ذلك الوقت لكانت الأمور سارت باتجاه مختلف. لحسن الطالع بدا وكأن أباه تمكّن من حل النزاع مع الملك الفلسطيني بحكمة حيث قدَّم لأبيمالك هدية قيِّمة واستماله إلى جانبه فعقدا اتفاقية صُلْح. ارتأى إسماعيل أن أباه كان كريماً جداً بإعطائه سبعة حملان بالإضافة إلى كل تلك الخراف والماعز والأبقار. أنا، ابنه البِكر، لم أحصل على شيء في حين أنه أغدق العطاء على ذلك الملك الأجنبي. يعي إسماعيل جيداً أن أباه هو في الواقع الأجنبي الساكن في أرض الفلسطينيين بسماح من ملكهم إلا أنه في أوقات كهذه يتحرك الجرح الناتج عن الرفض في قلبه، لكنه سريعاً ما يعود للمنطق بأن أمه على الأقل لم تبقَ جارية بل أصبحت امرأة حرّة.

بعد هذا بمدة وصلت إشاعة قصة غريبة إلى مسامع إسماعيل بأن أباه أراد قتل إسحق. «لقد فعل ذلك لإطاعة الله» قال الناس لكن إسماعيل لم يفهم ذلك قط، ويبدو أن الله قال لاحقاً بأن أباه غير مضطر للمضي قدُماً في ذلك، وهذا أمر جيد أيضاً لأن إسماعيل يصبو سراً لأن يلتقي بأخيه غير الشقيق في يوم ما، وكان قد قرر بأنه سيزوره بعد أن يموت والداه ويسأله عما جرى بالتفصيل.

أصبح لدى إسماعيل سبب للاحتفال بعد مرور تسعة أشهر على زواجه بعد انجبت له زوجته طفلاً جميلاً ذو بُنية قوية، صبي!

يعرف إسماعيل أن هذا المولود بركة من الله. فهو يذكر جيداً الأحاديث التي كان يجريها مع أبيه حينما كانا يجلسان معاً أمام الخيمة بعد غروب الشمس. ألم يسمع ذلك مراراً وتكراراً: «ستكون اباً لاثني عشر أميراً يا بني، هذا هو وعد الله لي. سيباركك

١٤ تكوين ٢٠: ١٧

الله بغِنى. كن واثقاً أن الله يحبك.» حفظ إسماعيل هذه الكلمات عن ظهر قلب وبدأ الآن برؤية تحقيق هذه الوعود فقد وُلِد أول أمرائه.

فيما فكّر إسماعيل باسم للطفل تقدّمت والدته باقتراح. «لمَ لا تسمّيه تارِح، على اسم جدك؟»

«إنه اسم جميل يا أمي لكنني أفضِّل أن أُكرم الله وأشكره من أجل بركاته.»

«إذن، لمَ لا تسمّيه «نوح» أي «راحة» بما أن الله قد أعطاك راحتك الآن.»

«هذا أيضاً اسم جيد لكنني أريد أن أعبِّر عن وعد الله لي، ما يشير إلى النسل الكثير الذي أشار إليه.» نظر إسماعيل نحو والدته ولاحظ أنها مستغرقة في تفكير عميق ثم هزّت رأسها إذ خانتها أفكارها عن إيجاد اسم يعكس هذا الفكر.

«وجدتُها» قال إسماعيل فجأة «سأسمّيه نَبايُوت أي المُثْمِر وهذا هو تماماً ما أريد التعبير عنه» حوّل إسماعيل نظره إلى أمه أولاً وتفرّس في وجهها ثم إلى زوجته التي كانت تستمع طوال هذا الوقت للحديث الدائر بين زوجها وحماتها، فهي تفهم تماماً أن الرابط بين الأم وابنها أقوى بكثير من ذلك بين الزوجة وزوجها.

أومأت كلتاهما بالموافقة فيما فكّرت هاجر في سرّها **لن تتمكّن سارة من التفوّق على هذا بابنها الوحيد، قد تكون ضحكت لأنها حملت بطفل في سن متقدّمة لكن الوعد باثني عشر قبيلة أُعطيَ لإسماعيل، وليس نَبايُوت إلا دليل قاطع بأن إسماعيل فحل.**

عندما بلغ المولود يومه الثامن فعل إسماعيل ما كان قد رأى أباه يفعله لأبناء الخدم في بيته، فاستخدم صخرة ذات شفرة حادة وقطع غُرلة نَبايُوت لأنه أراد أن يبقى أبناؤه جميعاً مشمولين في عهد الله مع أبيه. بهذه الطريقة سيتذكّرون جميعاً خالقهم إلى الأبد الذي سيبقى معهم كما بقي معه.

٨ المصالحة بين الآباء

ارتفعت في الأفق سُحبٌ من الرمال المتصاعدة من وقع أرجل ماشية تدب على الطريق الرملي مُعلِنة اقتراب زائر من المخيم. أعلنت الملابس التي كان يرتديها والزركشة الخاصة بالجمل الذي يركبه وطريقة امتطائه لسفينته أنه قادم من قبيلة أخرى. حاول إسماعيل تخمين انتمائه لكن معرفته بالعشائر والقبائل خانته. تبع الرجل المسار المؤدي إلى نبع الماء المتفجِّر بالقرب من المخيّم واقترب منه بتردد، لكن إسماعيل أرسل ابنه الأصغر للترحيب بالغريب قبل وصوله إلى غايته. ركض «قِدْمَة» بحماس نحو الضيف الزائر وحيّاه ثم عاد راكضاً إلى أبيه وقال له لاهثاً: «بابا، لا أفهم كلام الرجل.»

«حسناً يا بُني، سأذهب بنفسي للاستعلام منه.»

نهض إسماعيل وسار خارجاً من الخيمة في ذات اللحظة التي ترجّل فيها الرجل عن مركبته وبدأ بسقي دابّته. جفل الرجل عند اقتراب إسماعيل منه وانتصب بقامته فبدا مألوفاً لإسماعيل. إنه يشبه أَلِيعازَر! يا لها من مفاجأة! لكن ما الذي جاء به إلى هنا؟ ما الذي يريده؟ تحرّك جرح قديم في قلب إسماعيل، وعاد شعوره برفض أبيه كما لو أنه حدث بالأمس. وتصوَّر إسماعيل في ذهنه مشهد وداع أبيه له، الذي ما إن نطق بكلمات الوداع حتى استدار من فوره ومشى مبتعداً عنه. آخر ذكرى انطبعت في ذاكرة إسماعيل كانت لظهر والده وخصلات شعره البيضاء المتطايرة بفعل الهواء.

لم تكن ذكراه تشمل وقوف أبيه طويلاً في انتظار اختفاء أثره في رمال الصحراء أو نظراته تشيِّعه أثناء ابتعاده أو يده المرفوعة في الهواء ملوّحة بالوداع كما كان يفعل عادة عند وداع الضيوف المغادرين. لم يفعل إبراهيم أياً من ذلك، ولم يُظهر أية مشاعر عند وداعهم، بعكس أَلِيعازَر الذي أطال الوقوف في وداعهم ملوحاً بيده مشيِّعاً إياهم بقوله: «اذهبوا بسلام.»

لقد رفضه والده تماماً! شعر إسماعيل بغصَّة تختنق في حنجرته، لكنه تمالك نفسه وسيطر على مشاعره الجياشة خوفاً من أن تكشف ضعفه، إذ أراد أن يظهر بمظهر ساكن الصحراء القوي، الذي أسس لنفسه عشيرة كبيرة بأبنائه الاثني عشر، وقطيع الأغنام الذي أصبح يمتلكه، بالإضافة إلى الجِمال والبهائم، مظهر الرجل الجدير بالاحترام.

تأكد إسماعيل من هوية الرجل عند اقتراب الغريب منه. إنه أَلِيعازَر بكل تأكيد، فالعلامة على جبينه تكشف انحناءه المتكرر وملامسة وجهه للأرض، وهي عادة تعلّمها من إبراهيم الذي لطالما انحنى أمام الخالق وتواضع، راكعاً على الأرض ساجداً متعبِّداً لله.

«السلام عليك» حيّاه أَلِيعازَر.

«السلام عليك أيضاً، أهلاً بك في بيتي المتواضع» رد عليه إسماعيل فيما حيّاه مادَّاً يده للإمساك بقبضته للمصافحة متظاهراً بأنه لم يميِّزه.

تردد أَلِيعازَر للحظة ثم قال: «أحمل لك تحيات سيدي إبراهيم.»

طرفت عينا إسماعيل عند ذِكر اسم والده لإخفاء الألم الدفين. هل يتظاهر بأنه شخص آخر؟ أم يؤكِّد لألِيعازَر أنه يخاطب الشخص المطلوب؟ التجاعيد المحفورة في وجه أَلِيعازَر تضفي عليه ملامح الطيبة والمودّة، وتذكّر إسماعيل المقالب التي اعتاد ممارستها عليه. يا للهول! لقد تحمَّل أَلِيعازَر الكثير من شقاوته عندما كان صبياً صغيراً. وتعرَّض للأذى بسبب ألعابه المزعجة، بالرغم من كونه كبير الخدم في بيت أبيه. لكن أليعازر لم يغضب منه البتة، فقد كان رجلاً طيب القلب ولطيفاً.

إدراك حقيقة أنه لن يتمكّن أبداً من لوم أَلِيعازَر على أي شيء كسر الحاجز الجليدي بينهما فوضع يده اليسرى على كتف أَلِيعازَر وقبّله على خدّيه. اغرورقت عينا الرجل العجوز بالدموع فيما جذب إسماعيل إليه واحتضنه بشوق.

بعد أن مسح أَلِيعازَر الدموع من عينيه مستخدماً غطاء رأسه المُغبَر تحوّل إلى الصبي الواقف إلى جانب إسماعيل وصافحه أيضاً.

«هذا ابني الأصغر قِدْمَة» عرّف به إسماعيل

نظر أَلِيعازَر إليه مستفسراً: «كم ابناً لديك؟»

«لقد باركني الله باثني عشر ابناً»

«الحمد لله وله كل التمجيد» أعلن أَلِيعازَر. «هو أمين مع الذي يعبدونه. ألا تذكر وعد الله لأبيك؟» يتذكر إسماعيل ذلك جيداً ويؤكد أن الله كان صادقاً في وعوده.

بدأ إسماعيل بالشعور بالارتياح بالحديث مع الرجل والاستمتاع بزيارة صديقه القديم.

عند انقضاء المساء بغروب الشمس وراء الأفق وظهور النجوم التي تزيّن السماء عرف أَلِيعازَر أن الأوان قد حان ليكشف عن السبب الكامن وراء زيارته المفاجئة. فاتكأ بجانب النار بالقرب من إسماعيل وأبنائه ووالدته هاجر. ولأنه كان يتحدّث بلهجة مختلفة لا يفهمها الأبناء كان إسماعيل يفسِّر لهم ما كان يُقال بين الفينة والأخرى. عرفوا من جدّتهم أن ضيفهم قادم من الشرق البعيد، من دمشق، وأنه عمل لسنوات طويلة في خدمة جدِّهم. وكان الأولاد يتوقون لسماع القصص عن أسلافهم إلا أن أباهم نادراً ما كان يتكلّم عن أبيه، جلّ ما علّمهم إياه كان محصوراً بالله الذي يعبده جدهم إلا أنه لم يتكلّم عن جدهم قط.

روى أَلِيعازر للعائلة عن موت سارة وعن الأرض التي اشتراها إبراهيم من الحِثِّيّين، كما روى لهم بالتفصيل الدقيق كيف قاده الله لإيجاد الزوجة المناسبة لإسحق. هز إسماعيل رأسه إذ كان يدرك جيداً يد الله في مجريات أحداث الحياة. ثم ساد الصمت، وحدّق أَلِيعازَر في عيني إسماعيل، وطلب من الله أن يعطيه الحكمة بصوت خافت ثم قال: «أبوك مشتاق إليك.»

توقّف قلب إسماعيل عن الخفقان للحظة ولم يتمالك نفسه. لاحظ أَلِيعازَر التوتر المرتسم على وجهه إلا أنه أكمل حديثه: «لقد أرسلني إليك لأخبرك بأن ..» لم يصدّق إسماعيل ذلك. **لقد رفضني أبي منذ وقت طويل جداً والآن يشتاق إليّ فجأة؟ لا بد وأن ذلك بسبب موت سارة فلا بد أنه يشعر بالحزن الآن ويحتاجني لأخفف عنه. حسناً، هذا لن يحدث أبداً. توجّب عليه أن يأتي إلى هنا بنفسه.**

رمى إسماعيل نظرة خاطفة إلى وجه أمه وشاهد الجمود في عينيها الذي أكد له مشاعره. «هذا محزن بالنسبة إليه» أجاب إسماعيل ببرود. إلا أن أَلِيعازَر توقّع رد الفعل هذا وكان مستعداً له فاستكمل حديثه بلطف شديد. «يشعر أبوك بالأسى لأنه

جرحك بتلك الطريقة المؤلمة.» ثم استدار نحو هاجر وقال: «كما يعتذر إليكِ بسبب الطريقة التي عاملكما بها.»

«حسناً، إن كان آسفاً كل ذلك الأسف، لماذا لم يأتِ بنفسه؟» ردّ عليه إسماعيل بحدّة لاذعة: «إنه حتى لم يحرّك ساكناً عندما ودّعناه، بل إنه لم يلوِّح لي بيده. إنه يعامل كل ضيف يأتيه بكل احترام لكنه طردنا كالكلاب الضالة.»

حافظ أَلِيعازَر على هدوئه ورباطة جأشه. «أفهم شعورك يا إسماعيل، فأنت تشعر بهجر أبيك ورفضه إياك، لا بد وأن إبعاده لك على ذلك النحو سبَّب لك الألم العميق. لقد تفاجأت نفسي برد فعله، لكن حقيقة أنه لم يلوّح لك بيده لم يكن له علاقة بقساوة قلبه نحوك، بل بسبب الألم الشديد الذي كسر قلبه لوداعك. ألا تذكر كيف وضع بنفسه قربة الماء على كتف أمك بدلاً من أن يترك فعل ذلك لواحد من العبيد؟ لقد فعل ذلك إكراماً لك. أنا واثق بأن أبوك يريد لك الأفضل ولطالما صلّى من أجلك. يمكنني تمييز مدى حبه لك واشتياقه إليك.»

رد إسماعيل باندفاع غاضب: «كان بإمكانه أن يرسل في طلبي قبل الآن، فنحن لا نبعد عنه سوى رحلة مسير أربعة أيام.»

«يا إسماعيل! أبوك لا يتصرّف أبداً بإرادته بل يسعى دائماً لاختيار مشيئة الخالق. لست أفهم ذلك تماماً لكنني أشهد قيادة الله له. أتعلم أنني، لولا ولادتك، كنت سأرث كل ما يملكه أبوك؟

نظر إليه إسماعيل بحيرة، فهو لم يفكِّر بذلك أبداً. «إذن، لقد رفضك أنت أيضاً؟»

«كلا. لم أتعرّض للرفض، اعتقدتُ ذلك في البداية لكنني أدركت لاحقاً أن تلك هي خطة الله التي لا يمكنني أن أدركها بالكامل.» لاحظ أَلِيعازَر أن إسماعيل بدأ يشعر بالاسترخاء فاستكمل حديثه: «حتى إسحق شعر بالرفض في بعض الأحيان، ففي لحظة كان أبوك على وشك أن يقدِّمه ذبيحة لأنه كان مقتنعاً بأن الله كان يطلبه منه كتقدمة.»

«نعم، لقد سمعتُ بذلك» أجاب إسماعيل بازدراء.: «إنها قصة عجيبة، بالكاد صدّقتها وأنت تقول أنها حدثت فعلاً.»

«نعم لكن والدك آمن من كل قلبه أن الله سيقيم إسحق من الموت.» تأنّى أَلِيعازَر قبل أن يكمل كلامه حتى تستقرّ الكلمات التي قالها في ذهن المستمعين ثم أكمل: «وهو يرجو الآن أن يراك ثانية.»

«وما الذي يقوله إسحق حول تعرّضه للذبح الوشيك؟» سأل إسماعيل بحذر متحاشياً الإجابة المباشرة لدعوة أَلِيعازَر.

«لقد نضج إسحق وازدادت ثقته بأبيك، حتى إيمانه بالله زاد بسبب تلك التجربة. لقد بدأت بملاحظة بعض إيمان أبيك فيه.» وفسّر أَلِيعازَر: «في الواقع، أبوك ليس هو الوحيد الذي يرغب بلقائك بل إن إسحق متشوِّق للقائك أيضاً. فأنت أخوه الوحيد وبالرغم من القصص الكثيرة التي سمعها عنك إلا أنه لا يذكر شيئاً عنك.»

لمست تلك الكلمات قلب إسماعيل بعمق. أخوه يرغب بلقائه. «لقد تأخر الوقت» قال بحزم «حان وقت النوم. سأخبرك في الغد إن كنتُ سأقابل إبراهيم.»

رأى إسماعيل أحلاماً ملأته بالسلام في تلك الليلة، وكانت تلك هي الدفعة اللطيفة التي ساعدته على اتخاذ قراره.

في ذلك الوقت، كان إبراهيم ينتظر عودة أَلِيعازر بفارغ الصبر وكان يتّكئ طوال فترة الظهيرة والمساء في ظل شجرة أثل كان قد زرعها عند طرف المخيَّم. كان بإمكانه أن يراقب بعينيه المدرّبتين المنحدر الجاثم أمامه والطرق المرتسمة فوقه. بعد موت

سارة بدأ يشعر بالحرية لمقابلة ابنه البكر مرة ثانية وعندما طرح الفكرة على إسحق وافقه الأخير بحماس شديد مما ألغى كل مانع أمام دعوة إسماعيل.

أخيراً، لمح إبراهيم خادمه الأمين في الأفق البعيد وبرغم بُعد المسافة إلا أن إبراهيم ميَّز أسلوب أَلِيعازَر في ركوب الجمل. بدأ قلبه يخفق بسرعة كبيرة عندما لاحظ أن أَلِيعازَر لم يكن وحيداً، فنهض من فوره وركض بكل طاقته التي أدركها الزمن واندفع نحو الجماعة المُقبِلة.

حالما رأى إسماعيل لهفة أبيه العجوز باندفاعه نحوهم اغرورقت عيناه بالدموع.

شعر نَبَايُوت الذي كان يركب إلى جانبه بالإحراج إزاء تدفق دموع أبيه. فقد علّمه أبوه كما علّم اخوته عدم إظهار مشاعرهم علانية لأن تلك علامة ضعف. وكان دائم الافتخار بأبيه الذي أسّس حياة لنفسه ولعائلته من العدم. كيف يمكنه أن يظهر أي اهتمام بهذا العجوز الذي تخلّى عنه في صباه؟ لكن إسماعيل لم يُبالِ، فقد رقّ قلبه لأبيه.

ببراعة كبيرة لجم الجمل الذي يركبه وجعله ينزل على ركبه وترجّل عنه بسرعة كبيرة، وغاص الأب والابن في حضن بعضهما فيما امتزجت دموعهما معاً وبقيا على حالهما تلك لفترة طويلة من الزمن. مسح إبراهيم دموعه عن وجهه وحيّا الشاب الواقف أمامهما. «نَبايُوت، هذا جدّك إبراهيم» قال إسماعيل دون وجود حاجة للتعريف.

وضع نَبايُوت يده في يد جدّه للسلام عليه باحترام، لكن ذلك لم يكن كافياً لإبراهيم، فجذب حفيده إليه واحتضنه بين ذراعيه. تضاربت مشاعر نَبايُوت في صدره، فقد كان متضايقاً إزاء تسلسل الأحداث برمته، لكنه شعر بدفء وسلام في حضن جده لم يختبرهما مسبقاً في حياته. مشى الجميع نحو المخيّم وجلسوا معاً في ظل شجرة الاثل الكبيرة.

فيما انسحب ضوء النهار بخجل من حنايا الوادي، خيّم الظلام فوق الأراضي وألقى بظله القاتم على الخيام، عاد إسحق إلى البيت واستنتج من عدد الأطفال المتجمهرين حول الشجرة أن والده يستضيف أشخاصاً ذو أهمية كبيرة. وفكّر بسرعة ربما عاد أَلِيعازَر! أسرع الخُطى، وحاول تمييز الأشخاص المختلفين من بُعد.

رفع أحد الأطفال نظره في الاتجاه الذي سلكه إسحق وصرخ بكلام لم يتبيّن ماهيته، لكنه رأى رجلاً ينهض على الفور ماشياً باتجاهه مبتعداً عن الجماعة الجالسة.

غريبٌ مقدار الشَّبَه بين هذا الرجل وبين أبي! تفاجأ إسحق في البداية إلى أن أدرك هوية الرجل. إنه أخوه، أخوه الوحيد. لمح الدموع في عيني أخيه وشعر براحة عظيمة وهو يقول: «أهلاً بك يا إسماعيل، أهلاً وسهلاً» فيما طبع برقة قبلة محبة على خدّيه، وحيّا نَبايُوت بذات الطريقة. لكن ابن إسماعيل ظلَّ متحفِّظاً أمام الجماعة بالرغم من شعوره الداخلي بالراحة إلى درجة الغرابة. لقد سرّه أن يتعرّف على جده وعمه إذ لم يكن قد التقى بأي من أقاربه من جهة والده أو حتى والدته من قبل، وتذكّر شعوره بالغيرة من أصدقائه الذين كانوا يحظون باهتمام بالغ من جدودهم.

أعلن ذلك اليوم بداية جديدة للعلاقة المتجدّدة بين أفراد العائلة، إلا أن إسماعيل مضطر للمغادرة قريباً للاهتمام بأمور عائلته، والعناية بقطيع الماشية الذي يملكه. لكنه وعد أباه وأخاه عند وداعهم بأنه سيزورهم ثانية قريباً.

«عليك أن تُحضر كل عائلتك معك في المرة القادمة» شدّد إسحق بحزم.

«أنت كريم جداً، لكن للأسف عليّ أن أعتذر، لأن أولادي مسؤولون عن الماشية. لا أقدر أن أترك هذا النوع من الأعمال للخدم الذين يفرّون للنجاة بأنفسهم عند اقتراب الخطر وينسون أمر الخراف والنعاج.»

لم يخطر ذلك في بال إسحق، لكنه أدرك لاحقاً كم كان صعباً على والده ائتمان الاخرين على مثل تلك المسؤوليات قبل أن يُرزَق بأبناء من صُلبه.

تزاحمت الأسئلة التي طرحها نَبايُوت على والده طوال طريق العودة. إذ أراد أن يعرف التفاصيل المملة لما حدث مع جده وجدته. وشرح إسماعيل بسعة صدر كل ما يتعلق بالأسباب التي أدّت لإبعاده من قِبَل إبراهيم.

«لكنني لا أفهم يا أبي، يبدو لي جدّي رجلاً لطيفاً جداً، ومع ذلك أظهر قسوة كبيرة في التعامل معك ومع جدتي هاجر.»

«أنا أيضاً لا أفهم ذلك يا نَبايُوت، كل ما أعرفه أن ذلك كان أمراً يتعلّق بالله الخالق. فقد تصرّف جدّك لإطاعته.»

«حسناً، لا أريد أن يكون لي أي علاقة بإله يطلب مثل تلك القسوة من شعبه.»

«نَبايُوت، أفهم شعورك تماماً. أنا أيضاً أجد صعوبة في بعض الأحيان لتقبُّل ذلك، لكنني اجتزت بما يكفي مع الله لأكتشف أنه معي وأنه يحبّني.»

«حقاً؟ كيف؟» سأل نَبايُوت ببرود كشف شعوره بالرفض، مما جعله يفقد متعة كونه حفيداً بافتقاده لوجود جدّ يروي له قصصاً عن الماضي السحيق، أو ليلتجئ إليه عندما يعجز عن الحديث مع والديه، أو ليسمع عن قصص مغامراته ...

أجاب إسماعيل سؤال ابنه بصبر شديد. «عندما نفذ منا الماء اعتقدتُ أنني سأموت حقاً. لم أتمكّن من السير، وتعثَّرت مستنداً إلى جسد جدتك هاجر الضئيل لبعض الوقت، لكننا لم نجد الماء في أي مكان. في النهاية مدّدتني جدتك في ظل بعض الشجيرات وجلست بعيدة عني كي لا أرى دموعها فيما كانت تنتحب حزناً على ما أصابني. في تلك اللحظة بالذات فكَّرتُ بمعنى اسمي ...»

«الله يسمع» قاطعه نَبايُوت بانزعاج. «لقد أخبرتني ذلك عدة مرات.»

«بكل تأكيد يا بنيّ! عندما دعوتُ الله بكل ما أوتيت من قوة 'إن كنتَ حيّاً حقاً، خلِّصنا', فجأة دوّى صوتٌ من السماء. لم أكن قادراً على الرؤية لكن جدتك ميّزت الصوت، كان ذلك صوت الغريب الذي التقت به منذ سنوات. أنا متأكد أن ذلك كان صوت الله لأنه يسمع ويتكلّم. حتى جدّك سمعه يتكلّم عدة مرت.»

فيما أصغى نَبايُوت إلى قصة والده ارتشح شيء من قلبه، وحلّ شعور جديد مكان الألم والغضب. شعر بذات الإخلاص الصادق الذي يغلّف كلام أبيه في كلمات جده. ما إن أنهى إسماعيل قصته حتى كان نَبايُوت قد تعلّم درساً هاماً باستحالة فهم طُرُق الله، لكنه يُظهر لنا دوماً محبته، وبركاته لنا لنتمكّن من التسليم له والإيمان به. الرب صالح ويحب أولئك الذين خلقهم.

٩ حل الأحجية

«مِبْسام، قيدار، أدَبْئِيل، أنتم ستأتون لمرافقتي» قال إسماعيل.

كان الرجال الثلاثة سعداء لأن الفرصة سنحت لهم أخيراً بالذهاب. فمنذ عودة نَبايُوت من زيارة جده كانوا ينتظرون قُدُماً الذهاب إليه للقائه والتعرُّف عليه أيضاً. مرّ ما يقارب عام على ذلك. عام كامل من الانتظار حتى يعلن لهم أبوهم أن الوقت المناسب قد حان. كانوا يسألونه عن الوقت المناسب من وقت لآخر، لكنهم كانوا يعرفون جيداً أنهم لن يستفيدوا شيئاً إن هم ضايقوه كثيراً، وأن النتيجة لن تكون في صالحهم. لكن صبرهم أثمر أخيراً مما أشعل الغيرة في قلوب باقي إخوتهم الجالسين في الخيمة.

«متى سيحل دوري؟» سأل قِدْمَة الأصغر بين إخوته، الذي لم يخلُ من الجرأة للسعي وراء الحصول على استحسان والده.

«سيأتي دورك يوماً ما» أجاب والده.»

«لكنك قلتَ أن جدّي في الخامسة والأربعين بعد المائة من العمر!» اعترض قِدْمَه.

«لم نسمع أبداً عن شخص عاش تلك المدة الطويلة. لا بد أنه سيموت قريباً.»

«لا تقلق بهذا الشأن» قهقه إسماعيل ضاحكاً. «أتعرف كم عاش جدك الأعظم تارح؟» لم يعرف قِدْمَه الإجابة، فجال إسماعيل بنظره في وجوه الآخرين علَّ أحدهم يعرف الإجابة، ثم غمز نَبايُوت الذي كان قد سمع الإجابة من فم جدّه شخصياً.

تكلّم نَبايُوت ببطء مُلفتاً أنظار الجميع إليه وأجاب: «عاش أبو جدي ليحتفل بعيد ميلاده المائتين والخمسين بل تجاوزها.»

بان الارتباك واضحاً على وجه قِدْمه وأراد أن يعرف: «كيف يمكن لشخص أن يعيش كل تلك المدة الطويلة؟ زوجة جدي «سارة» ماتت منذ مدة طويلة، وقد كانت كبيرة جداً في السنّ في ذلك الوقت أيضاً.»

«الأمر يتعلق بالله الخالق» فسَّر نَبايُوت. ثم أكمل حديثه مُخبِراً إياهم عن كل الأمور التي علَّمها إياه جدُّه عن الله.

أدرك إسماعيل بعد سماع المحادثة التي نشأت بين الاخوة مدى استفادة نَبايُوت من زيارة جدِّه، وكان عليه أن يمنح كل واحد من أولاده تلك الفرصة. من جهة أخرى، عليه أن يكون عملياً ويفكّر بأمر الماشية التي يملكونها فهي تحتاج لمن يعتني بها أثناء غيابه.

«حسناً، إن كان نَبايُوت مستعداً للعناية بالخيام بمساعدة ستة من إخوته الأصغر فسأسمح لمِشْماع ودُومَة بالانضمام إلينا.»

لم يشأ نَبايُوت أن يحرم إخوته من هذه الرحلة فأومأ برأسه موافقاً.

خلال بضعة أيام كانت قافلة الجِمال تحمل راكبيها نحو بئر سَبْع.

بعد ثلاثة أيام من المسير لمح إسماعيل شجرة الأثْل القديمة من بعيد وسُرَّ كثيراً، لأن الخيام كانت لا تزال منصوبة هناك، مما عنى أن أباه لم يرحل بعد. وفيما اقترب أكثر شاهد أباه يتكئ في ظل الشجرة الكبيرة، كان تمييزه سهلاً بشعره الأشيب الطويل. ولم يمضِ وقت طويل حتى لمحه إبراهيم أيضاً فنهض مسرعاً على قدميه وحيّا ابنه بصوت مبتهج: «إمتياز أن أراك ثانية يا إسماعيل.»

«بل الامتياز لي أنا بلقائك ثانية يا أبي» أجاب إسماعيل ثم قدَّم أبناءه المرافقين له. سلَّم إبراهيم بفخر على كل واحد منهم محتضناً إياهم بشغف واحداً بعد الآخر.

جلس الجميع بعد قليل في دائرة تحت الشجرة، تحيط بهم الصخور المتشكِّلة قريباً منهم على هيئة مكعبات مبعثرة هنا وهناك. أعطى إبراهيم أوامره لبعض الخدم بإحضار بعض البطانيات المصنوعة من شعر الماعز للضيوف. فجلبوا بطانية لكل واحد منهم، ففردوا جزءاً منها فوق الصخور المربعة الشكل والجزء الآخر على الأرض فشكَّلت فراشاً مريحاً، حيث عملت الصخور عمل الوسادة لهم، فاتكئوا عليها، مما سمح للرجال بالاسترخاء بعد رحلتهم المضنية على ظهر الجِمال.

عند توزيع المشروب سمع إسماعيل صدى بكاء طفل. فاستدار نحو مصدر الصوت، ولاحظ أنه صادر من ناحية خيام إبراهيم وإسحق. «أبي، مُبارك أنت، فإسحق أصبح أباً أيضاً.» نظر إليه إبراهيم مأخوذاً للحظة ثم أدرك الكلمات التي خرجت من فم إسماعيل. «بكل تأكيد، أنا مُبارك يا بني، لكن ليس بالطريقة التي فكرتَ بها. الطفل الذي تسمع صراخه هو ابني أنا.»

انتقلت الدهشة إلى وجه إسماعيل ورنَّت آذان أبنائه بالكلمات التي سمعوها. **ما الذي يقوله جدّنا؟ مستحيل! إنه عجوز! كيف يمكن ذلك؟**

نهض الجد ومشى صوب الخيمة وعاد حاملاً صبياً رضيعاً بين يديه. «لقد تزوجتُ ثانية وهذا هو زِمْران، إنه في أسبوعه السادس الآن.»

لم يرد أمر كهذا ضمن توقعات إسماعيل على الإطلاق، لكن أعجبته فكرة أن أباه لا يزال قوياً. ثم عادت أفكاره للحديث الذي دار حينما كانوا لا يزالون في البيت. «يا شباب، يمكنكم أن تروا الآن بأمِّ أعينكم: جدكم رجل قوي وتنتظره العديد من السنين في مستقبله.»

ابتسم إبراهيم. «لأكون صادقاً، لقد تفاجأت كوني أصبحت أباً مرة أخرى لكن الله أعطاني حيوية كبيرة، وأنا أستمتع بها إلى أقصى حد.»

علت ضحكات الرجال المرحة، في حين تمنى كل واحد منهم في قلبه أن يكون بهذه الحالة عندما يكبر، ويستمتع بخلوته مع زوجته لسنوات طويلة آتية.

«وإسحق؟» سأل إسماعيل. «كيف حاله؟»

«ليس جيداً. لقد مضى على زواجه سنين عديدة لكن لسبب ما لم يباركه الله بابن بعد.»

لاحظ إسماعيل التردد في نبرة صوت أبيه وأدرك الصراع الذي يدور في خلده، فالابن الذي أبعده تبارك بغِنى باثني عشر ابناً في حين بقي الابن المعجزة بلا ذرية.

«أبي، سأصلّي من أجله، أَعِدُك.»

«شكراً لك يا بني، أقدِّر ذلك كثيراً. أؤمن من كل قلبي أن الله سيحقق وعده من خلال إسحق، لكنني لا أفهم لماذا يتطلب الأمر كل هذا الوقت.»

تسمَّر الشباب الخمسة مِبْسام، قيدار، أَدْبَئيل، مِشْمَاع ودُومَة إزاء المحادثة الدائرة بين أبيهم وجدِّهم، كما أثّر فيهم إيمان جدِّهم الراسخ في الخالق.

«يوماً ما,» أكمل الجد «سيتمم الله وعده لإسحق وسيباركه بأبناء كثيرين كما فعل معك.»

وافق إسماعيل وقرَّر أن يُعلِم أخاه إسحق بأنه سيصلّي من أجله.

في الصباح التالي وأثناء تناول طعام الإفطار ناقش الجميع ترتيبات ذلك اليوم.

«أبي، أريد أن آخذ إسماعيل في جولة حول الديار» عَرَض إسحق.

شعر إبراهيم أن ولدَيه بحاجة لقضاء بعض الوقت معاً. «طبعاً، هذا جيد جداً، أتعلمان شيئاً؟ خلال غيابكم سأسلّي مِبْسَام وإخوته ببعض القصص» اقترح إبراهيم بغمزة وجّهها لابنَيه وأكمل: «قصص سمعتماها أنتما عدة مرات من قبل.»

في الحقيقة لم يكن إسماعيل يكتفي من سماع قصص أبيه لكنه أراد في ذات الوقت قضاء بعض الوقت مع أخيه على انفراد لذا وافق بسرور على اقتراح أبيه. وأبناؤه؟ حسناً، لم يطيقوا صبراً لسماع المزيد من جعبة جدّهم.

بعد تناول الغداء وأخذ قيلولة قصيرة انطلق إسماعيل وإسحق نحو التلال، لقد كانا يتطلّعان قُدُماً لقضاء بعض الوقت معاً كإخوة إذ لم تتوافر لهما أي فرصة لقضاء خلوة حقيقية في المخيّم أو حوله، لذا كان من الأفضل لهما أن يسيرا بعيداً إن أرادا أن يقولا أمراً خاصاً، فخارج المخيّم لن يجدا سوى رعاة الغنم، وهؤلاء يحتفظون بما يسمعونه لأنفسهم.

عندما ابتعد الشقيقان مسافة كافية عن المخيّم فتح إسماعيل الموضوع الحساس بحذر.

«أنا آسف يا إسحق لأنك لم تصبح أباً بعد.»

«الله صالح.»

انتبه إسماعيل للبرود في نبرة صوت أخيه فتعمّق أكثر. «كيف تتعامل مع الأمر؟»

شعر إسحق بصدق اهتمام أخيه فانفرجت أساريره وسكب قلبه أمام أخيه. «الأمر ليس سهلاً يا إسماعيل، خاصة بعد كل تلك المعجزات التي اختبرها أبي وبعد كل تلك الوعد التي أخذها من إلهنا. الجميع عندهم توقعات منا. في البداية كانوا مأخوذين بإلهنا، لكن الآن، إنهم يسخرون منه على الدوام وهو يقول أنه معتاد على سخريتهم وأنني لا يجب أن أسمح لذلك بأن يضايقني. لكن في الحقيقة، أتألم بشدة كلما سخر ضيف من الأمر، أو عندما أسمع أحداً في السوق يتكلم عن إلهنا بازدراء.» تمالك إسحق نفسه وسيطر على مشاعره لكن إسماعيل أحس بألم أخيه واعترف: «أنا أيضاً لا أفهم الله أحياناً.»

«عندما أبعد والدنا والدتي وأنا معها كنتُ غاضباً جداً منه، ولم أرغب برؤيته ثانية بل وتمنيت له الموت. لكن لاحقاً، عندما كنت ممداً في الصحراء وكنت على وشك الموت دعوت إلى الرب وهو خلَّصني.»

نظر إسحق في عيني أخيه بفضول شديد فضح توقه الشديد للمعرفة «كيف تعاملت مع مشاعر الرفض لديك؟»

«بصراحة، بقيت مشاعر الضغينة مستعرة في داخلي إلى أن جاء أليعازَر لمقابلتي العام الماضي وأخبرني عن مشاعره الخاصة بالرفض وشاركني كيف وصل إلى المصالحة مع نفسه وأحس بالسلام بخصوص مشاعره.»

«نعم، أعرف عن ذلك، فقد أخبرني أليعازَر بهذا الأمر. إنه يثق بالله مثل أبينا تماماً.»

«هذا تماماً ما حدث معي. لم تكن حياتي سهلة على الإطلاق وقد حظيت بنصيبي من اللحظات المؤلمة، لكن في ذات الوقت، كنت قادراً على تمييز يد الله في الكثير من الأمور.» ورأى أن إسحق متشوق جداً ليعرف المزيد، فأكمل حديثه. «بعد أن خلَّصني الله من موت محتم في الصحراء ساعدني على بناء حياة لنفسي ولعائلتي في زمن قياسي نسبياً. لكنني لم أدرك بركة الله لحياتي إلا لاحقاً إذ لم أقع ثانية فريسة المرض بشكل خطير كما أعطاني الله اثنا عشر ابناً أصحاء، وأصبحت صياداً بارعاً فكوّنت قطيعاً

كبيراً من بيع الطرائد التي اصطدتها, ولغاية الآن لم أتعرض للسرقة من قبل ساكني الصحراء الآخرين، كما لم يهاجمني أسد قط.» ثم أكمل مازحاً «ربما كانت المنطقة التي أسكنها أكثر جفافاً بل أقرب للمقفرة بالنسبة للأسود لتسكنها على أي حال.»

«أنت رجل برّيّ بحق» ضحك إسحق فيما وجّه لأخيه لكمة حميمة إلى صدره.

«بالمناسبة، ما الذي حدث معك خلال التقدمة؟ لقد سمعت هذه القصة الغريبة، هل حاول أبي حقاً أن يضحّي بك على مذبح؟»

«في الواقع يا إسماعيل، كانت هذه أعظم معجزة رأيتها في حياتي.»

«إذن، ما الذي حدث؟» استفسر إسماعيل بدهشة محدّقاً في عيني أخيه بغير تصديق.

«أعرف أنها قصة غريبة، لكن الله أمر أبي فعلاً بفعل هذا.»

«وأنت؟ ألم تخف عندما قيَّدك أبي؟»

«بالطبع، لقد كنت خائفاً حتى الموت! لكنه استمر يطمئنني ويذكرني بأن لا شيء مستحيل عند الله. في ذلك الوقت اختبرتُ صِدْق ذلك.»

«أنت حي وبصحة جيدة بلا شك، كما أنك جالس هنا إلى جانبي.» ضحك إسماعيل بسرور «لكن أخبرني، كيف نجوت؟»

«في اللحظة التي أمسك بها أبي السكين جاء صوت من السماء قائلاً 'يا إبراهيم، لا تؤذِ الصبي'.»

«غير معقول! سمعتَ الصوت من السماء أنت أيضاً؟» غلبت مشاعر إسماعيل عليه وتسمّر في مكانه. «لقد خضتُ ذات التجربة يا أخي.»

«أنت تمزح» صرخ إسحق.

«أبداً، بعد أن ودّعتني أمي فيما كنت ممدداً على الأرض على حافة الموت سمِعَت صوت رجل، لم يكن هناك أحد سوى سحابة ناصعة فوقنا.»

«هذا مدهش!» صرخ إسحق مصعوقاً. «عندما كنت مقيَّداً فوق المذبح بدا لي أن الصوت السماوي صدر من سحابة أيضاً.» شعر كلا الشقيقان بنوع من الرابطة الوثيقة التي تربطهما فيما كانا يشاركان بعضهما بحماس بتفاصيل التجربة الفردية التي خاضها كل منهما.

«اسمع يا إسحق، أنا أؤمن بأن الله سيباركك بعائلة من صُلبك. لست أفهم طُرُقه دائماً لكنني سأستمر بالصلاة إلى أن يتحقق وعد الله لك أيضاً.»

نظر إسحق نحو أخيه الأكبر وعينيه تعكسان شعوره بالافتخار به. «شكراً لك، أقدِّر ذلك كثيراً. وأنا أيضاً سأستمر بالصلاة بتوقعات كبيرة. فالله لديه خطة بكل تأكيد لحياة كلينا.»

أومأ إسماعيل بالموافقة وقال بنبرة ثقة لم يعهدها: «يفرح الله عندما نثق به حتى عندما لا نفهم طرقه.»

كانت تلك آخر الكلمات التي تبادلها الشقيقان حول هذا الموضوع. فبعد أن رفع إسحق نظره نحو الشمس الغاربة أدرك أن الظلام سيحل قريباً. «فلنعد ونتفقّد حال الأبناء فلربما غفا أبونا وبدأوا يشعرون بالضجر.»

انفجر إسماعيل ضاحكاً وأمسك بيد أخيه. «أنت تعلم جيداً أن أبونا لن يتوقف أبداً عن الكلام إلا عندما يلفظ أنفاسه الأخيرة!.»

عاد الأخَوَان ضاحكَين إلى المخيّم حيث وجدا أبناء إسماعيل مستغرقين في القصص التي يرويها لها جدهم.

لاحقاً لتلك الزيارة، استمتعت العائلة بأسرها بعدة سنوات من الرخاء الأُسَري. وكان إسماعيل يبذل جهده لزيارة أبيه ورؤية إخوته على الأقل مرة في السنة إذ استمرت العائلة بالازدياد، فإبراهيم رُزِق بخمسة أبناء آخرين من زوجته قَطُورة. وبعد انتظار طويل دام عشرين عاماً أصبح إسحق أباً أيضاً حيث باركه الله ببركة مضاعَفة على هيئة توأم، فُتِن إسماعيل بالاختلاف في طباع التوأمان فيما كانا يكبران. ففيما تعكس شخصية عيسو الجانب المغامر من شخصية إبراهيم يبدو أن يعقوب قد ورث حساسية جده.

الأمر الغريب أن إسحق لم ينجب أية أطفال آخرين بعد ولادة التوأم. وهذا أظهر لإسماعيل كم كان مُباركاً من الله بحصوله على اثني عشر ابناً منه، وقد ذكر ذلك أمام ابيه في أحد الأيام الذي رد بحكمته: «يحقق الله وعوده دائماً، لكن الأمر يعود إليه بكيف ومتى يحققها.»

في أحد الأيام، ظهر أحد عبيد إبراهيم فجأة في مخيّم إسماعيل وميَّزه إسماعيل على الفور بأنه أحد أبناء أَلِيعازَر وعرف أنه رسول موثوق به. «أبوك يريد أن يراك عاجلاً» قال الرجل. في الحال، أجرى إسماعيل الترتيبات الضرورية ورافق الرسول في طريق عودته إلى إبراهيم في نفس اليوم مصطحباً ابنه البكر نَبايُوت.

أسرع إسماعيل إلى خيمة أبيه حال وصولهما حيث كان أَبوه مستلقياً، جاهد الأخير للجلوس لتحية ابنه «أنا مسرور لأنك جئت بسرعة» افتتح الحديث بصوت ضعيف. «هناك شيء هام أريد أن أخبرك به.»

أدرك إسماعيل أن صحة أبيه قد تدهورت بشدة وأنه يحتضر لكنه فوجئ بوجود أمور عالقة لغاية الآن.

«ما الأمر يا أبي؟ ألم نحل كل الأمور بيننا منذ زمن طويل؟»

«هذا صحيح يا بُني، ومع ذلك لا يزال هناك أمر أريد أن أتصالح معك فيه.» لاحظ إبراهيم الارتباك في عيني إسماعيل فأكمل حديثه موضِّحاً: «منذ مدة طويلة أبعدتُك خالي الوِفاض لكنني اليوم أريد أن أملأ يديك غِنىً.»

«لستَ مضطراً لفعل هذا يا أبي، لديَّ كل ما أحتاجه» أجاب إسماعيل.

«هذا ما أريده، وهذا ما سيحدث» أصرَّ إبراهيم. «لقد أعطيتُ كل واحداً من أبناء قَطُّوره نصيبه من ممتلكاتي وستحصل أنت على نصيبك أيضاً.» نطق إبراهيم هذه الكلمات بصعوبة بالغة لكن هذه الرسالة كانت ذات أهمية شديدة بالنسبة إليه جعلته يضع كل قوته الباقية فيها.

إلا أن إسماعيل كان في غاية القلق على والده، ولأنه أدرك أن اليوم الذي سيودعان بعضهما فيه قد أزف، إلا أنه كان يتمنى في صميم قلبه أن يبقى أبوه على قيد الحياة.

«إسماعيل يا بني، كُن مُباركاً وسبب بركة. لدى الله خطة خاصة لحياتك وسيستخدمك بلا شك وسيستخدم نَسْلك لمجد اسمه.»

«نعم يا أبي، أؤمن بذلك أيضاً.»

«هل تذكر كيف صلَّيت من أجل إسحق؟ لقد استجاب الله لصلاتك وبارك إسحق بابنَين غالِيَين وسيجعل من نسل إسحق أمّة عظيمة بكل تأكيد تماماً كما يفعل معك. استمر بمباركة أخيك وستتبارك أنت أيضاً.»

«سأفعل هذا بلا شك يا أبي» وعد إسماعيل.

أنهى إبراهيم كلامه: «لا تنسى أبداً أن الله هو الذي منحك اسمك الجميل. إنه يسمعك.»

«أعرف يا أبي، وقد اختبرتُ هذا الأمر بشكل شخصي» أكد إسماعيل.

بدا جلياً أن جواب إسماعيل قد منحه الرضى فاضطجع إلى الوراء مستلقياً على الوسائد الليّنة، وانحنى إسماعيل نحوه وطبع قبلة حانية على جبينه وتركه ليرتاح. في تلك الليلة نام إبراهيم بسلام ولم يستيقظ ثانية بعد أن أسلم روحه.

اهتم إسماعيل وإسحق معاً بكافة الأمور. لكن قبل ذلك أخذا وقتهما ليحزنا ويبكيا موت والدهما، واستغرقا في الذكريات التي خلَّفها إبراهيم، والمعجزات التي اختبرها خلال حياته. كيف لا وقد كانا كليهما دليلاً حيّاً لبعضها. لقد كان والدهما رجلاً بحسب قلب الله بحق وقدوة فعّالة في العيش بالإيمان.

مع تلامس قرص الشمس الكبير مع الأرض في الأفق البعيد رتَّب إسماعيل وإسحق مراسم تكفين جسد إبراهيم بحسب التقاليد المعهودة استعداداً للرحلة الطويلة وإتمام دفنه، إذ كان إسحق قد وعد أباه أن يدفنه في المكان الذي دفنا فيه أمه، في الأرض التي يملكونها في جبال مَمْرا، ولأن الطريق إلى هناك كانت صعبة ووعرة لسلوك العربات التي تجرها الحيوانات حمل مجموعة من الخدم الجثمان المُسجَّى فوق محفّة.

أراد التوأمان عيسو ويعقوب مرافقة موكب الجنازة لكن إسحق لم يسمح لهما بذلك فهما في الخامسة عشرة من عمرهما وعليهما أن يبقيا للاعتناء بأمهما. سار الشقيقان إسماعيل وإسحق في مقدمة الموكب، يتبعهما مباشرة حَمَلة الجثمان، في حين سار الباقون في نهاية الموكب ممن يحملون المؤونة والإمدادات التي سيحتاجونها خلال الرحلة الطويلة.

انتقلت أفكار إسماعيل بشكل غريزي إلى كل الأمور التي قالها الله عن مستقبله بأنه سيكون حماراً وحشياً ورجلاً حرّاً، فموت أبيه أعطى تلك الحرية عُمقاً جديداً؛ فالمفروض أنه أصبح الآن كبير العائلة كونه الابن البِكر، وبالتالي تقع على عاتقه مسؤولية الاهتمام بإخوته الأصغر وعائلاتهم بالإضافة إلى أرامل المتوفّي. لكن أخيه إسحق حمل هذه المسؤولية مما أعطاه الحرية لاختيار المسار الذي يريده لمستقبله. وتمنّى إسماعيل في أعماقه ألا يرفضه إسحق عند عودة الحياة إلى طبيعتها لكن هذا أمرُ لن يكشف عنه سوى الزمن.

١٠ مشورة حكيمة

بعد إتمام مراسم الدفن انطلق الأخَوان في رحلة العودة إلى البيت راكبين بترو على حماريهما. أراد إسماعيل أن يرافق أخاه إسحق حتى وصوله إلى مخيّمه في بِئْر سَبْع قبل أن يستكمل رحلته إلى بريّة فاران حيث تنتظره عائلته بشوق.

«سأشتاق لك كثيراً يا إسماعيل.»

«بل أنا سأشتاق لك أكثر» أجاب إسماعيل قبل أن يغلِّف الصمت الأجواء بينهما فيما استغرق كل منهما في تأمّلاته بمستقبله الخاص.

«أتمنى لو كان بوسعنا العيش معاً» كسر إسماعيل حاجز الصمت.

«وأنا أيضاً» تفاعل معه أخوه. «لكنني أخاف ألا تكون مؤونة الطعام كافية لإشباع الماشية التي يملكها كلانا، ولا أرى سبيلاً لتجنُّب ذلك، لكن ربما يمكننا الانتقال للعيش أقرب بعضنا لبعض.»

«نعم، لا أرى ما يمنع ذلك، بل لقد فكرت بذلك عدة مرات، كما أنني أعتقد أن من الأفضل أن ننتقل إلى بقعة أخرى لكن علينا أن ننتبه ألا نعيق بعضنا بعضاً وإلا فإن التاريخ سيعيد نفسه» قال إسحق بابتسامة متكلّفة على وجهه.

«ماذا تقصد؟» رد إسماعيل متفاجئاً، لكنه تذكّر عندها ما حدث مع ابن عمهم لُوط، فمن الأفضل أن يحذرا ليكونا مستعدّين لمواجهة ما يمكن أن يحدث.

نظر إسحق نحو أخيه بفخر، فأبناء قَطُّورة لا يزالون صغاراً في السن، ولا يوجد أي أمر مشترك يجمعه بهم. ولكن إسماعيل أخوه الكبير القوي الذي أثبت نفسه ونجا في جو الصحراء القاسي، ولم ينجُ فحسب بل أصبح مثمراً أيضاً. فجأة، خطرت لإسحق فكرة.

«إسماعيل، ألا يوجد بئر ماء عذب بالقرب من المكان الذي تعيش فيه؟»

«لا أعتقد أن بإمكانك أن تجد بئراً يشبهه في بِئْر سَبْع.»

«كنت أفكر ببِئْرِ لَحَيْ رُئِي حيث التقت أمك بالرب. لقد ذهبتُ إلى هناك منذ مدة ليست ببعيدة لأروي بعض الماشية.»

«غريب، لِمَ لمْ أفكر بذلك!» رد إسماعيل بحماس. «أنا متأكد أن المياه هناك عذبة على مدار العام.»

«لا أتوقع العكس» ضحك إسحق. «لقد استخدم الله نفسه تلك البئر لإنقاذ حياتك. إنه مكان مُبارَك. كم يبعُد عنك؟»

«حسناً، يمكنك أن تصل إلى هناك على ظهر الجمال خلال يوم واحد» أجاب إسماعيل بسرور، فمجرّد فكرة أن أخاه قد يرتحل ويستقر قريباً منه تملأ قلبه بالفرح.

«رائع! سنتمكّن من رؤية بعضنا عند اكتمال القمر من كل شهر، فأنا أستمتع برؤية أبنائك كثيراً وأرغب بأن أتعرّف على أحفادك عن قُرب.»

«وهكذا يمكنني أن أكون ذا فائدة لأبنائك عيسو ويعقوب في حال احتاجا لمشورة عمِّهما» أضاف إسماعيل ببريق يتلألأ في مقلتيه. «وأيضاً يمكنني أن أبقيهما تحت ناظراي في ذات الوقت.»

«أنت غير معقول!» قال إسحق دون تفكير. «تتكلم كالابن البِكر تماماً!»

«أصبتَ يا إسحق، لكنني لا أريد التطفّل عليك والتدخُّل في شؤونك» أكد إسماعيل لأخيه.

استكمل الشقيقان مسيرهما وهما راضيان كل الرضى عن المخططات التي فكرا فيها واتفقا عليها.

امتلك الصمت إسحق فجأة إذ غمره الخوف من أن يرغب إسماعيل بالتخلص منه ليستولي على إرث أبيه، فعيسو ويعقوب لم يبلغا تلك القوة بعد للوقوف في وجه عمهما «ما شعورك إزاء الوضع الحالي؟» سأل إسحق أخاه الأكبر.

«أي وضع تقصد؟»

«حسناً، الوقت الذي أبعدك فيه والدنا مع والدتك لإرضاء أمي.» تعمّد إسحق التغاضي عن ذِكر يد الله في هذا الحدث لأنه أراد أن يعرف شعور إسماعيل إزاء الأمر كإنسان.

«كنتُ أعتقد أن أمك كانت فظيعة إلى حد أنني كرهتها في النهاية، بعد أن استمرت في توجيه الانتقادات لأمي ولي، فقد كانت دوماً معتدّة بنفسها لجمالها وللدلال الذي تلقّته إلى درجة إفسادها.»

أُخِذَ إسحق بكلمات أخيه فيما عبَّر إسماعيل عما تبقّى من مشاعر المرارة في قلبه. وأدرك إسحق أنه كان محقاً في افتراضه بأن الماضي لا يزال يضايق إسماعيل. فتعمّق إسحق أكثر في الحديث: «لكن ألم يكن أبونا هو الذي أبعدك في النهاية؟»

«كنتُ غاضباً منه أيضاً لمدة طويلة جداً, حتى عندما جاء أَلِيعازَر بعد سنوات عديدة ليطلب مني زيارته، لم أرغب بالذهاب في بداية الأمر.»

«إذن، لماذا ذهبت في النهاية؟»

«كان أَلِيعازَر معسول اللسان وذكّرني كثيراً بأبي بلطفه وصبره عند التعامل مع المشاكل مما جعلني أحبه أكثر. فمن ناحية كنت غاضباً ومهتاجاً، لكن من ناحية أخرى كنت أتوق لرؤيته من كل قلبي. وعندما أخبرني أَلِيعازَر أنك تشتاق إلي أيضاً وأنك أردتَ رؤيتي، لمس ذلك قلبي عميقاً.»

عند سماع تلك الكلمات صادرة عن فم أخيه غير الشقيق شعر إسحق بغصة في حلقه، فإسماعيل يحبه بحق. كانت معرفة ذلك مريحة جداً بالنسبة إليه.

«أنت الأخ الوحيد الذي حظيت به ولا زلت أشعر بذات الطريقة نحوك» أكمل إسحق. «لقد واجهت معضلة حقيقية لكن في تلك الليلة رأيتُ حلماً جعلني أشعر بالسلام لذا قررت أن أذهب مع أَلِيعازَر في الصباح التالي.»

استنشق إسحق أنفاسه مرتاحاً فقد تبين له بوضوح أن إسماعيل قد أخذ قراره بتقبُّل والديهما وكل أحداث الماضي دون الحاجة لأن يتدخَّل أحد لإقناعه. سحب إسحق لجام حماره ليجعله يقترب من حمار أخيه وسار بمحاذاته ثم أمسك بيده وقال «أنا سعيد أنك فعلت ذلك» ثم أضاف «أنت تشبه أبي كثيراً.»

شعر إسماعيل بالحرج، لكنه سُرَّ بما قاله أخيه فهمس بصوت خافت: «شكراً لك.»

انقضى شهران قبل أن يتجه إسماعيل مع العديد من أبنائه إلى بئْر سَبْع للقاءٍ حميم بين الأخوَين وأبناء العم. في تلك الليلة، تبادل إسماعيل وإسحق الأخبار فيما بينهما.

على مقربة منهما كان أبناؤهما يقضون وقتاً ممتعاً، في حقيقة الأمر كان عيسو هو الذي يقضي وقتاً ممتعاً مع أبناء عمه فيما كان يعقوب يراقب عن بُعد بهدوء والغيرة تملأ قلبه. فعيسو جريء وقويّ البنية ويجذب الاهتمام دائماً بقصص مغامراته المشوّقة عن الصيد فيما كان جُلّ معرفة يعقوب الهادئ تنصب على الطبخ أكثر من أي اهتمام

آخر مما جعل والده يشعر بالخجل منه لذا كان كثير الحديث عن عيسو مفصِّلاً للآخرين مآثر عيسو وبالكاد كان يذكر يعقوب. أمه كانت الشخص الوحيد الذي يهتم لأمره، في نظره هو على الأقل.

لقد كانت والدته تمدحه دائماً، كما أنها كانت تذكّره على الدوام بأن لله خطة خاصة لحياته، الأمر الذي ترك لكلماتها أثراً طيباً في قلبه. «يوماً ما سيخدمك عيسو بالرغم من كونه الأكبر، وستكون أمّة عظيمة.» هذا ما قاله الله لها عند ولادتهما أما كيفية تحقيق ذلك تبقى لغزاً كبيراً بالنسبة ليعقوب. يتمتع عيسو بصفات قيادية واضحة ولا يحجم عن فعل أي شيء أما هو فخجول ويفضّل البقاء في المخيّم حيث ينعم بالأمن والأمان، وهذا كان يجعله يستغرق في أحلام اليقظة، ويرسم جميع أنواع الخطط لخداع أخيه متمنياً أن ينال من عيسو يوماً ما.

فيما كان يعقوب مستغرقاً في أفكاره لاحظ أن أباه وعمه إسماعيل قد وقفا، وخرجا من مخبئهما المصنوع من الجلد السميك، حيث كانا يجلسان ليحتميا من حدة أشعة الشمس الغاربة. لقد حان وقت النوم.

منذ مدة قريبة، حانت ليعقوب فرصة حياته للنيل من أخيه، إذ عاد أخوه لتوّه من رحلة صيد مرهقاً ونافذ القوى، حاملاً على كتفيه وَعْلاً كبيراً قتَله بمهارته الشهيرة في الصيد. كان طريدة فخمة لكنه كان ثقيلاً جداً على الصياد المُتعب، وشعر عيسو برغبة شديدة لترك صيده الثمين في مكانه والعودة إلى البيت ليعود مع حمار يربط على ظهره الوعل، لكنه لم يشأ أن يتركه في البرية كي لا تنال الضواري من طريدته في غيابه.

بعد أن ربط عيسو الحيوان النافق في مكان آمن، تهادى إلى الفناء الخلفي للخيمة حيث منطقة الطبخ ونادى: «أمي، هل من طعام جاهز للدب الجائع؟» لكنه لم يلقَ جواباً. سمع عيسو طقطقة نيران حطب قريبة، فتوجّه صوب المدخل الأمامي للخيمة حيث كان يعقوب منهمكاً في تحريك قدر كبير من الحساء. الرائحة الشهية الصادرة عن إناء الطهي ملأت الجو مدغدغة أحاسيس الجوع التي تملكته وجعلته لعابه يسيل ومعدته تهدج. «أسرع، أعطني من ذلك الحساء الأحمر الذي تغليه»[١٥] أمر عيسو أخاه.

رفع يعقوب نظره من فوق القدر وأنعم النظر في أخيه المرهق المتعرّق قد يملك البرية لا يمكنني أن أغيّر ذلك، لكن هذه هاهنا مملكتي أنا. «انتظر، سنأكل كلنا قريباً» أجاب بفظاظة.

«يا رجل، أنا جائع جداً، يكاد يُغمى عليّ من شدة الجوع، هيا، لا تكن سخيفاً» رد عيسو بنفاذ صبر.

عندما سمع يعقوب عن شعور أخيه بالإغماء خطرت له فكرة، فقال بسخرية وعجرفة: «حسناً إذن، سأعطيك بعض الحساء إن .. بِعتَني حقوقك كابن بِكر.»

أجاب عيسو بدون تفكير: «ها أنا أموت من الجوع، فما نفع حقوقي كبِكر؟ تفضَّل خذها والآن أعطني بعضاً من الحساء.»

لقد نلتُ منه فكَّر يعقوب وشعر بسيادته على أخيه. فمع أن عيسو يفوقه في القوة الجسدية كثيراً إلا أن يعقوب نجح ببراعته في جعل أخيه ينفّذ ما أراده منه تماماً. لكن ماذا لو أنكر عيسو بيعه لحقوق بكورته لاحقاً؟ لا يوجد أحد هنا ليشهد على ذلك. فجأة خطر ليعقوب خاطر، فقال وقلبه يخفق بشده بين ضلوعه: «احلِف لي أولاً باسم الله الحي بأنك بعتني حقوق بكورتك»[١٦] لم يشعر يعقوب بهذه الشجاعة يوماً في حياته من قبل.

«أقسم لك» أجاب عيسو من فوره.

---

١٥ تكوين ٢٥: ٣٠

١٦ تكوين ٢٥: ٣٣

لم يصدّق يعقوب أذنيه، لكنه ليس راضياً بعد، فأصرّ: «أقسم باسم الله الحي.»
بدا وكأن عيسو يسمع صوتاً خافتاً في داخله: «لا تفعل ذلك، هذا ليس صائباً.»
في ذات الوقت كان الجوع يخزه أكثر من قبل فقال: «أوه .. حسناً، ماذا أستفيد من حق بكوريتي إن كنت على وشك أن أموت؟» حاول الصوت العميق في داخله منعه مرة ثانية لكنه تجاهله فحسب. «أقسم لك باسم إله السماء والأرض. والآن، أعطني الحساء!»

ملأ يعقوب زبدية من حساء العدس الأحمر الساخن على الفور وسلّمها لأخيه. لكن، **ماذا لو غيَّر عيسو رأيه؟** وناوله قطعة خبز طازجة. تناول عيسو وجبته بمتعة بالغة مغمِّساً الخبز بالحساء الساخن قبل أن يلقي به في جوفه محرقاً بالكاد لسانه من حرارة اللقمة، وعندما أصبح الحساء دافئاً ارتشف ما بقي منه في الزبدية في رشفة واحدة مُصدِراً صوتاً عالياً، ثم اختفى بسرعة.

كان يعقوب لا يزال واقفاً في مكانه إلى جانب قدر الحساء مرتعشاً إزاء ما حدث للتو. للمرة الأولى وربما الوحيدة في حياته غلب هو الضعيف أخاه التوأم الجبار.

في أحد الأيام انضم عيسو إلى إسحق فيما كان الأخير جالساً يستمتع بنسيم الهواء العليل إلى جانب خيمته

«أبي، أريد أن أتزوج.»

«عظيم يا بني, أعتقد أنك جاهز لهذه الخطوة.»

«هذه أفكاري أيضاً، ألم تكن أنت في سن الأربعين عندما تزوّجت بأمي؟»

«هذا صحيح. ومَن تلك التي تريد أن تتزوج بها؟»

«أعرف فتاة جميلة تناسبني تماماً يا أبي. إنها أخت صديقي صُوحَر من مَمْرا.»

«ومن أين هي يا بني؟»

«إنها ابنة عَنا الحِثّيّ.»

عندما سمع إسحق أنها حِثّيّة قطب جبينه، فقد حذره أبوه بشدة من الزواج من أهل تلك الأرض «يا بني، هذه ليست فكرة حسنة, هل نسيت أن جدّك أحضر لي أمك من فدَّان أرام؟»

«لكن يا أبي، إن عائلتها ذات نفوذ كبير وهذه فرصة رائعة لنا لتعزيز مكانتنا في الأرض» اعترض عيسو, بعد أن فكَّر جيداً بما سيقوله لأبيه فكان جاهزاً لمناقشة الأمر أمام أبيه. «انظر إلى المشاكل التي واجهناها مع الفلسطينيين يا أبي، عندما كنا نعيش في جَرار وكيف كانوا يطمرون آبارنا بالرمل. لكن! إن تحالفنا مع الحِثّيّين فلن يتمكّن الفلسطينيون من التعرُّض لنا أو الإساءة إلينا» استطرد عيسو بحديثه مسروراً بحُجَّته. مُلاحِظاً تردد أبيه أدرك عيسو أن عليه أن يقدّم أفضل ما لديه لإقناع أبيه أن زواجه من عَدَا يمثِّل أفضل فرصة لهم. «كما أنك عقدت هُدنة سلام مع الفلسطينيين عندما تحالفت معهم، لكن ماذا لو أراد الحثيون أن يستولوا على الأرض التي اشتراها جدّي منذ مدة طويلة؟»

لم يفكر إسحق في ذلك قط لكنه كان يعرف أن أهل كنعان قد يخدعونه لأنهم لا يخافون الله، لكنه اختبر بما يكفي ليتأكد أن الله سيعتني به بنفسه.

«يا عيسو، حُجَجُك مَنطقية جداً ومُقنِعة، ومع هذا لا أعتقد أن هذه خطوة حكيمة» قرر إسحق, «لكنني سأفكر بالأمر.»

لاحقاً في تلك الليلة، أطلع إسحق رِفقة زوجته على مخططات عيسو مما أجفل رفقة وأثار الخوف في قلبها. «امرأة حِثّية في عائلتنا؟ فوق جثتي الهامدة! لقد رأيتُ مدى قذارتهم. هل يمكنك أن تراها تطبخ لنا طعاماً؟ سنمرض جميعاً!»

«لن يكون تعليمها طُرُقنا أمراً صعباً. شخصياً، ما يقلقني هو طرق عيشهم غير الأخلاقية، فهم لا يثقون ببعضهم فكيف لنا أن نثق بهم نحن؟»

«خطرت لي فكرة. لمَ لا تطلب من إسماعيل أن يكلمه؟ أعرف أن عيسو يحترم عمه.»

ظنَّ إسحق أن تلك كانت فكرة لامعة وقرر أن يناقش الأمر مع إسماعيل في لقائهما المُقبل.

في زيارة إسماعيل التالية سحبه إسحق جانباً وشرح له حساسية الوضع. «لا مشكلة» أكد له أخوه. «دعه لي.»

بعد الغداء اقترح إسماعيل أن يرافقه عيسو في رحلة للصيد اليوم التالي، الأمر الذي أثار حماسة عيسو لمرافقة عمه المتمرّس في الصيد، وعندما أخبر أبيه عن اتفاقهما في اليوم التالي تنهّد إسحق ارتياحاً **سيكون كل شيء على ما يرام.**

فتح عيسو بحماس موضوع زواجه المُقبل مع عمه في ذلك اليوم، فأفصح له قائلاً: «عمي إسماعيل، لقد وجدتُ عروساً جميلة» وبدأ بشرح الأسباب وراء ارتباطه بانفعال متّقد.

«ما رأي أبوك بالأمر؟» أراد إسماعيل أن يعرف مما أعاد عيسو إلى الإحباط: «إنه ليس بسعيد، ربما أصبح أكبر من أن يفهم. أرجوك يا عمي، هل يمكنك أن تتكلم معه؟ أنت تفهم حياة الصحراء أكثر منه.»

أكد إسماعيل أنه تعلّم بكل تأكيد كيفية النجاة في الصحراء كمتجوّل وحيد. «لكن فوق كل شيء، الله هو الذي يعطينا النجاح.»

«لكن يا عمي إسماعيل، لم يُعطِنا الله المنطق بلا سبب، علينا أن نستخدم تفكيرنا.»

«صحيح، لكن لماذا تعتقد أن الحِثّيين سيرغبون بعقد تحالف معكم؟»

«حسناً، أعتقد أنهم خائفون من ثروتنا ونفوذنا، لذا فإن عَقْد حِلفٍ معهم سيطمئنهم ويؤكد لهم أننا لا نريد التعرض لهم بأي أذى.»

«تفكير سليم يا عيسو لكن هؤلاء القوم لا يهتمون بالله ولا يطيعون وصاياه. ألا تدرك أنك إن أخذتَ عَدَا زوجة لك فسيكون بمقدورها أن تطالب بجزء من ميراثك؟

اعترف عيسو أنه لم يفكر بذلك. «لكن ألم يحترم الفلسطينيين المعاهدة التي قطعها جدك معهم؟ حسب علمي لم يأخذوا أي أرضٍ منه فأهل كنعان ليسوا بذلك السوء!»

«عيسو، أشير عليك بعدم ضرورة إتمام هذا الزواج فلن يتأتى منه سوى المشاكل.»

أطرق عيسو رأسه لدى سماع هذه الكلمات، فقد كان يأمل أن يساعده عمه، لكن تبيّن له العكس الآن. فحتى هذا الرجل الذي تعلّم ان يحيا في البرية يرفض خطته.

إنهم لا يفهمون مدى ذكاء هذه الخطوة بإتمام تحالف مع الحِثّيّين بالزواج فكّر عيسو في نفسه. لقد أسَرَت قلبه بجمالها، ولم يكن هناك نساء مثلها لذا لم يتمكّن من ترك هذه الفرصة تفلت من يديه. لقد سمع العديد من قصص الامتيازات التي تمتّع بها جدّه بسبب جمال جدّته الأخّاذ. **أليست هذه رغبة كل رجل ... أن يتزوّج من امرأة بارعة الجمال؟**

نظراً لكل الأسباب الكامنة وراء رغبته بالزواج من عَدَا ازداد عيسو اقتناعاً في نفسه بأن هذا هو التصرف السليم الواجب اتباعه. ربما لم يعتقد أبوه وعمه بحكمة هذا القرار لكن ما الذي يعرفانه؟ لقد تغيَّرت الأزمنة ولم تعد الأمور تسير على النحو الذي

كانت تسير عليه منذ أربعين عاماً. على المرء أن يتكيّف مع الزمن الذي يعيش فيه. ولِكَون أبيه أكثر ثراءً مما كان جدّه على الإطلاق فإن ضرورة التحالف واضحة وضوح الشمس.

من ناحية أخرى، لم يكن بوسع عيسو سوى أن يحترم وجهات نظر عمه، فقد رأى العديد من المرات تبين فيها أن الكثير من الأمور التي قالها عمه أصبحت واقعاً حقيقياً.

يستحيل بكل تأكيد التنبؤ بجميع النتائج المترتبة عن هذا الزواج؟ فجأة، خطرت له فكرة جديدة. **الملك أبيمالِك طرد أبي في إحدى المرات لأننا كنا نملك عدداً كبيراً من الماشية. ربما يلجأ ملوك آخرون لفعل الأمر ذاته وسينتهي بنا الحال في الصحراء ثانية. سيكون هذا أمراً غير مقبول. فبرغم كل شيء، لقد وعدنا الله بهذه الأرض.** هذه حجّة حاسمة لا يمكن نقضها. لقد اتضحت الأمور الآن، عَدَا هي أفضل امرأة له وحالما حانت الفرصة ذهب لزيارة صُوحَر أبيها واتفقا على المَهْر وخلال أسبوع واحد أصبحت عَدَا زوجة عيسو .. بدون الحصول على موافقة أو بركة أبيه.

حالما انتقلت عَدَا إلى خيمته اكتشف عيسو ملذات الحياة الزوجية، واستمتع بها تماماً، لكن خلال تلك الأيام من كل شهر التي لا تكون فيها زوجته طاهرة توجَّب عليه أن يمنع نفسه عنها ويتمالك نفسه، لكن هذا لم يعجبه البتّة، مما جعله يفكِّر في طرق مختلفة لمعالجة الأمر. بإمكانه بالطبع أن يتبع طُرُق رجال كنعان ويضاجع نساء أخريات لكن هذا لم يبدُ صائباً في عينيه، فهو يعرف تماماً أن هذا مخالف لمشيئة الله. فجأة، خطرت له فكرة رائعة. **لِمَ لا أتزوج امرأة ثانية؟ بهذه الطريقة تتوفَّر لي واحدة من الاثنتين على الدوام، فهذا أسهل من ارتكاب الزِّنى.** لم يحتج عيسو للتمعن في التفكير كثيراً ففي اليوم التالي استشار صديقه صُوحَر الذي نسَّب له زوجة ثانية تناسبه.

بعد شهر، تزوج عيسو أَهوليبامَة ابنة إيلون الحِثِّيّ. كان مَهرُهاً مُبالغاً فيه لكن ما أهمية ذلك؟ فوالده يملك الكثير من الجِمال والخِراف وأوليس جزءاً كبيراً من ماشية أبيه يعود إليه في كل حال؟ ما عليه سوى أن يقتسم ميراث أبيه مع يعقوب، فهو ليس مُلكاً لأبناء عمه إسماعيل الذي سيضطر لتقسيم ممتلكات أبيهما على أبنائه الاثني عشر.

وكما هي العادة، استمر عيسو بالحياة مع والديه بعد زواجه.

نشأت كلتا عَدَا وأُهوليبامَة على عبادة الأوثان، وعند زواجهما، أعطتهما عائلتيهما تماثيل جديدة جميلة الصنع لآلهتهم كهدايا لزواجهن. وتعلمت الزوجتان من والدتيهما أهمية نقل تقاليد ديانتهم للجيل التالي، لذا كانتا شديدتا التدقيق لاتباع كافة تفاصيل إيمانهن وعبادة التماثيل المنحوتة لآلهتهنّ بكل أمانة.

سريعاً، تصاعدت حدة التوتر بين الزوجتين وحماتهما، فالنساء جميعاً مسؤولات عن الأعمال المنزلية، وكانت رِفقة تغضب كثيراً عندما تراهما يقدِّمان أفضل الأطعمة لآلهتهم الحجرية الصغيرة، فالله الخالق هو الوحيد المُستَحق لأفضل ما يمكنهم تقديمه. كما أن الشابتين لا تظهران الاحترام لإله إبراهيم جدّ عيسو. حتى إسحق بدأ يتضايق من سلوكهما بالرغم من أن عيسو هو ابنه المفضّل، لكنه مريض وكل هذه النزاعات تتعبه. كم يتوق لتلك الأيام التي كان يسود فيها السلام بيته قبل زيجات عيسو.

١١ مشاكل عائلية

جلس رجلان طاعِنان في السن على حافة جبل يستمتعان بالمناظر الخلابة المترامية على السفوح الرملية الممتدة أمامهما. تنتشر في أسفل الوادي خيام الأصغر بينهما التي شكّلت مع الحقول المحروثة لوحةً من الفسيفساء بِرُقَعٍ من شعر الماعز الأسود المتفاوتة مع رُقَعٍ من الخُضرة الزاهية تحيط بهما صُفرة الأراضي الرملية والصخور الموزّعة على مرمى البصر. أصوات ضحك أطفال يلعبون على مقربة منهما ممزوجة بأصوات ثرثرة النساء تتصاعد من قاع الوادي. الشمس الكسولة تزحف ببطء عبر زُرقة السماء باتجاه الأفق مرخية فوق المشهد وهجاً لطيفاً منعشاً. تقترب الظهيرة من النهاية والقرص المشع بدأ يفقد حدة قوته، النسيم العليل يضفي على المكان برودة لطيفة تجعل من الموقع مكاناً مناسباً للرجلين للاسترخاء، حيث يأكلان بزور عباد الشمس التي يقشرانها بأسنانهما بمهارة في حين يبصق كل منهما بعض القشور إلى خارج فمه مشكّلين فِراشاً ينتشر على الأرض تحت قدميهما.

«ما رأيك بكل هذا؟» سأل إسحق أخاه غير الشقيق المحبوب.

حدَّق إسماعيل في الأفق بعد أن علم عن المشاكل التي تواجهها عائلة إسحق، فزوجتا عيسو عنيدتان جداً، وفوق ذلك وقف عيسو إلى جانب زوجتيه بدلاً من أن إكرام والديه. موقفه معارض تماماً لعادات وقيم إسحق ورِفقة بل يبدو وكأنه واقع تحت تأثير روحي من نوع ما أعماه عن طُرُقهما في التفكير. شرح إسحق لأخيه أن المشاكل التي تسببها زوجتا عيسو تزعجه بشدة، وقد تطلب منه تعليم الشابتين احترام الناس والحيوانات جهداً كبيراً. لكنهما ترفضان إكرام خالقهما رفضاً تاماً، وبدلاً من ذلك تستمران بعبادة أوثانهما المنحوتة بعناد شديد. حزن إسماعيل لأن عيسو لم يسمع لنصيحته، فكيف يستطيع أن يساعد إسحق الآن؟

فيما استمر إسماعيل في التفكير ملياً بكل تلك الأخبار التي سمعها، أكمل إسحق: «لقد فكرت بإبعاده مع زوجتيه ...»

«ماذا؟ لا يمكنك أن تكون جاداً فيما تفكر؟» قاطعه إسماعيل، وفي الحال استقام في جلسته: «ليسامحك الله لرعاية مثل هذه الأفكار في ذهنك!»

«.. لكن لأنني رأيت الألم الذي شعرتَ به وشعرَ به أبونا، لم أتمكن من المضي قدماً بالأمر» أكمل إسحق.

«شكراً لله» تنهد إسماعيل باسترخاء، وعاد للاستلقاء فوق صخرة ناتئة، فهو لم يرد أن يختبر ابن أخيه ذات الألم الذي عانى منه في طفولته. «لحسن الحظ أن الحِثِّيين لم يسبِّبوا لكم أية متاعب بعد. عندما قصدني عيسو لطلب المشورة حذَّرته بأن لهم أهدافهم الخاصة وراء السماح له بالزواج من بناتهم.»

«شكراً لله لأنه يحمينا» وافقه إسحق «فهم بالكاد يضايقوننا والحيوانات بخير ونادراً ما يُسرق شيء منها.»

«نعم بالتأكيد، الله معكم ويباركم بوفرة.» وافق إسماعيل.

«ومع هذا كان المهر المدفوع لكل منهما باهظاً جداً. فقد كلفوني قدماً وساقاً. لا يسعني إلا أن أرجو ألا يكون لدى يعقوب خططاً مشابهة لأخيه.»

«بالحديث عن يعقوب، ألم يزف وقته زواجه هو أيضاً؟ لا بد أنه بلغ الخمسون من عمره الآن؟»

«صحيح، لكنني لا أريد له أن يتزوج امرأة من كنعان بكل تأكيد.»

«ما رأيك بابنتي مَحْلَةَ، فأنا لن أمانع تزويجها له» عرض إسماعيل بطريقة عفوية، مما جعل إسحق يطلق ضحكة من قلبه «هذه ليست بالفكرة السيئة على الإطلاق, إلا أن الله أعلن بوضوح أنه يريد أن يبارك العالم من نسلي فلا أريد أن أسبب تشويشاً. ماذا لو حدث خلاف بين أبنائنا وأحفادنا؟»

لم يرد إسماعيل لذلك أن يحدث ايضاً فتخلّى بدوره عن الفكرة بسرعة.

«أريد أن يكون عيسو أكثر تكريساً لإلهنا وخالقنا إذ يبدو أن الإيمان لا يحتل مكانة كبيرة في قلبه» أكمل إسحق, «إنه يقول كلاماً جيداً لكن بذات الوقت يسمح لزوجتيه أن تفعلا ما يحلو لهما.»

«استمر بالصلاة من أجلهم يا إسحق، حتى خلال الأوقات التي تشكك فيها بأن الله يسمعك، تذكر اسمي والبئر التي هناك في الأسفل. الله يرى ويسمع بكاء قلبك.» هذه كانت أفضل نصيحة تمكّن إسماعيل من التفكير بها وإسدائها لأخيه خلال هذا الوقت الصعب.

تذكُّر أمانة الله خلال الأوقات المستحيلة بحسب المعايير البشرية شجعت إسحق، أفلم يكن هذا هو سبب انتقاله للعيش بقرب تلك البئر بعد وفاة أبيه؟ أولم يباركه الله بوفرة في حياته؟

«صادفت أمراً مذهلاً في الآونة الأخيرة» أكمل إسماعيل. لقد تحدثا بما يكفي عن مشاكل عيسو والآن هو يريد أن يلطّف من مزاج أخيه. أسَرَت الحكاية التي رواها إسماعيل لُبّ إسحق، وجعلته يسترخي، وفي نهايتها انفجر في الضحك للمرح المرافق لحبكتها. لو كان المخيّم ساكناً لسمع المرء صوت ضحك الرجلين يدوّي في أرجاء الوادي. فالأخَوان يستمتعان بصحبة بعضهما في كل فرصة تسنح لهما لقضاء الوقت معاً.

«عمي إسحق، أرجوك، تعال بسرعة» قال رجل وهو يلهث بشدة بعد اندفاعه المفاجئ إلى الخيمة مقاطعاً الحديث الدائر بين إسحق وعيسو. بالرغم من ضعف نظره إلا أن إسحق ميَّز صوت ابن أخيه بسرعة. «ما الذي حدث يا قيدار؟ لماذا أنت مستعجل هكذا؟»

«لقد مرض أبي كثيراً خلال الأيام القليلة الماضية وهو يشعر بأن نهايته قد اقتربت ويريد أن يودّعك.»

أدرك إسحق فداحة الوضع وبدون أي تأخير أمر عبيده لتجهيز الجِمال له ولعيسو.

كان عيسو يتفاخر بآخر مآثره في الصيد لكنه انتفض حالما سمع الخبر، وساعد أبيه للوقوف على قدميه، وخرجا معاً فيما أصدر إسحق تعليماته لابنه البِكر. «عيسو، أنت ستأتي معي. أخبر أمك أنني سأغيب مدة أسبوع. أيضاً، أخبر يعقوب أنه سيكون مسؤولاً عن المخيّم والماشية.» امتثل عيسو لما قيل له، ثم ساعد أباه العجوز للركوب على ظهر الجمل.

بعد قليل انضم قيدار إلى جانب عمه وابن عمه واتجهوا جميعاً إلى فاران حيث يعيش إسماعيل، ومع كل خطوة أخذوها كانت الجمال تنثر حفنة من رمل الصحراء

الناعم مع حركة قوائمها الأربعة، وسريعاً اختفت القافلة الصغيرة المرتحلة وراء سحابة من التراب.

«لقد وصلوا.» همس نَبايُوت.

عند سماعه خبر وصول أخيه، فتح إسماعيل عينيه المتعبتين وحاول أن يجلس باستقامة في سريره.

«أبي، تمدد. أنت متعب جداً.» نصحه مِبْسام لكن إسماعيل لم يكترث لكلام ابنه واستخدم كل الطاقة الباقية في جسده ليرفع نفسه إلى وضعية الجلوس. أسرع مِبْسام بوضع وسادة مريحة من القش وراء ظهره ليسنده فأصبح بإمكان إسماعيل أن يرى مدخل الخيمة بوضوح.

بعد لحظات، وجّه نَبايُوت الضيف إلى خيمة أبيه فيما كان ممسكاً بيد عمه.

«السلام لك» حياه إسحق ممسكاً بيد أخيه في سلام حميم وقبّله.

«سلام لك أيضاً يا أخي. شكراً لله على وصولك بالسلامة.»

وقف مِبْسام الجالس بقرب أبيه برشاقة لإفساح المجال لعمه للجلوس. أسند الأخير ثقله على عيسو ليتمكّن من ثني ركبتيه المتيبّستين وجلس على الوسادة التي وفَّرها له مِبْسام. تطلّب الأمر منه بعض الوقت ليجد الراحة في جلسته بالقرب من أخيه المحبوب.

دخل الخيمة أحد أبناء نَبايوت حاملاً بين يديه صينية مصنوعة من الخشب وَضع عليها أربعة أكواب من الشاي الساخن، ووضع الصينية أمام إسحق وقدَّم له كأساً من الشاي بكل أدب واحترام. سُرّ إسحق بالكأس الساخن وارتشف منه بصوت عالٍ يدل على رضا قبل أن يستدير لمواجهة إسماعيل.

بعد التحيات المعتادة والمجاملات المعهودة أخذت المحادثة بينهما جانباً أعمق. «هل تذكر كيف كنت أعتقد أنك تشبه أبي؟» سأل إسحق.

«نعم، أذكر. لماذا؟»

«الآن بعد أن شخت، حتى صوتك أصبح يشبه صوته.»

«حسناً، يمكنني أن أقول ذات الشيء عنك» أجاب إسماعيل كاشفاً عن ابتسامة خفيفة ارتسمت على وجهه المليء بالتجاعيد الغائرة. اشتد عليه الألم واستعر في جسده المنهك مذكّراً إياه بقُرب النهاية. أجفل من شدة الألم لبرهة ثم استكمل بضعف: «أنا مسرور لمجيئك يا إسحق. سوف أشتاق إليك.»

أرخى إسحق أذنيه أقرب من وجه إسماعيل ليتمكن من فهم ما يقوله ثم أجاب: «سأشتاق لك أيضاً يا أخي. لكن قريباً سنلتقي ثانية. هذا رجائي الأكيد.»

«لي هذا الرجاء أيضاً تماماً كما علّمنا والدنا» بالرغم من خفوت صوت إسماعيل الذي جعله بالكاد مسموعاً إلا أن إيمانه الراسخ في قلبه كان له وقع الحقيقة. «هل تذكر كم كان يقول لنا –»الحياة الحقيقية ليست هنا على الأرض وإنما هناك في الحياة اللاحقة»-.»

«بكل تأكيد. لهذا السبب بقيت أعيش في خيمة كي أتذكّر دوماً بأن الحياة على الأرض مؤقتة.»

«إسحق، انت قدوة مثالية لنا جميعاً. أرجو أن تبقى عائلتينا على اتصال دائم.»

«طالما الله الخالق حي سألزم نفسي بذلك يا أخي.» وعد إسحق وشهد عيسو وجميع الحاضرين على الوعد الذي قطعه إسحق لإسماعيل أخيه.

بعد برهة وجيزة لاحظ إسحق أن أخاه يغط في النوم فأمسك يده الواهنة بين يديه وبقي جالساً إلى جانبه بصمت وبعد مرور يومين لفظ إسماعيل أنفاسه الأخيرة.

جاء جميع جيرانهم من أهل البادية ورؤساء قبائلهم لحضور جنازة إسماعيل الذي عُرف كرجل ذو نفوذ كبير، فبوجود أبنائه الاثني عشر وعائلاتهم الكبيرة أصبحت العشيرة معروفة كقوة لا يُستهان بها بين المناطق المحيطة.

أمضى إسحق وعيسو وباقي أفراد العائلة سبعة أيام في حِداد، وفي نهايتها حان وقت العودة إلى البيت.

عند الوداع أكد إسحق لأبناء أخيه بأنه مُرحَّبٌ بهم دوماً في مخيّمه، وأثنّى عيسو على كلمات أبيه: «نعم، تعالوا في أي وقت. زيارتكم تشريف لنا.»

«مُرَحَّبٌ بك أيضاً هنا يا عمي» رد نَبايُوت شيخ العشيرة الجديد. «ولا تتردد في طلب مساعدتنا كلما احتجت إلى ذلك. سنكون دوماً إلى جانبك.»

عندما عاد إسحق إلى بيته غرق بالحُزن على فراق أخيه لأسابيع طويلة، فقد شعر بالوحدة الشديدة. والداه قد توفيا منذ سنوات عديدة، وليس لديه ما يجمعه بإخوته الأصغر. ليس الأمر بأن زِمران أو الآخرين لم يكونوا لطفاء، إنما كل ما في الأمر أنهم أصغر منه بكثير، فقد وُلِدوا جميعاً بعد زواجه لذا فإنهم يتبعون جيلاً مختلفاً عن جيله. لم يبقَ لديه الآن أحد شَهِد أيام المشقة والراحة التي شكّلت حياته وجعلته الرجل الذي هو عليه الآن.

«لطالما فهمني إسماعيل دون أن أحتاج لقول أي كلمة» قال إسحق لأبنائه. «لقد شهدنا الكثير معاً.»

سأل يعقوب أباه الشيخ بحيرة: «ألم يبعده جدّنا عندما كنتَ في الثالثة من عمرك؟»

«هذا صحيح. ومع ذلك، لدينا الكثير من الأشياء المشتركة.»

«قلتَ لي مرة أنكما التقيتما بالله.»

«بالتأكيد, كانت تلك اختبارات جبارة. حدثت لكلينا عندما قاربنا على الموت. لم يواجه أي إنسان أزمات تماثل تلك التي واجهناها.»

«لكنني كنت أعتقد أن جدّي كان واثقاً بأنك سترافقه عند النزول عن الجبل بعد تقديم الذبيحة؟» قال عيسو, «لذا لم تكن على وشك الموت، أليس كذلك؟»

نظر إسحق نحو ابنه بكل تلك التجاعيد الغائرة في جبهته التي تشهد عن حياة صعبة. «أؤكد لكما أنني شعرت فعلاً بأنني كنت سأموت حينها. شعرتُ بالرعب عندما قيّدني أبي وربط يداي ورجلاي بحبال قوية ثم أمسك السكين و...» حبس إسحق دمعة ترقرقت في عينه عندما تذكّر تلك اللحظة، ومدى شعوره بالرفض حينها. وتذكَّر أن إسماعيل اختبر ذات الخوف عندما كان ممدداً في الصحراء.

«كان عمكما رجلاً مميزاً جداً. نحن الاثنين اختبرنا شعور الرجل عندما يواجه الموت على يد أبيه، إلا أن خوفي دام للحظة فقط، لكن حياة عمكما إسماعيل كانت مواجهة يومية مع الموت. لقد حرَّرني أبي وقطع قيودي حالما وفّر الله سبيلاً آخر للتقدمة، فتمكنّا من تقديم الكَبْش ذبيحة بدلاً عني.»

التزم الشابان الصمت لبرهة فقد تركت كلمات أبيهما أعمق الأثر في قلبيهما. ثم أكمل إسحق كلامه. «لكن الله باركه بإعطائه ورثة كثيرين تماماً كما وعد جدّكما.»

«ألم يعدنا الله بذات الشيء؟» سأل يعقوب. «لطالما أخبرني جدي بذلك في حياته.»

«طبعاً, حتى هذا الوعد نشترك به أنا وإسماعيل»

لم يشأ عيسو الحديث عن ذلك فقد كان يعرف أن يعقوب هو ابن العهد وليس هو. لذا سأل: «هل هناك أموراً اخرى تشترك فيها مع عمي إسماعيل؟»

«اطلق الله علينا أسماءنا قبل ولادتنا, وهذا لم يحدث أبداً في تاريخ البشرية من قبل.»

«كيف يكون ذلك؟ ألم يعطِ الله جدّنا وجدّتنا اسميهما؟» رد عيسو وكأنه يسرد واقعاً.

«الفرق يكمن في أنهما كانا شيخان عندما أعطاهما الله أسماً جديداً، في حين أنه أعطانا اسمينا قبل أن نولد, كما أن الله أرسل في الحالتين رسولاً استثنائياً لإعلان أسمائنا إلى أمهاتنا.»

«مَن كان ذلك الشخص؟» استفسر يعقوب.

«من الصعب وصفه. في بعض الأحيان ظهر أمامي على صورة إنسان وفي أحيان أخرى كان غير مرئي، لكنه كان دائماً يقول 'هذه مشيئتي' أو 'سأفعل هذا' كما لو كان الله نفسه. لكن أحداً لم يرَ الله بعد آدم وحواء عندما كانا يعيشان في الفردوس.»

أسرت الرواية يعقوب وتمنى في قلبه أن يلتقي بذلك الرجل دون أن يعرف أنه بعد سنوات عديدة ستتحقق أمنيته، بل إنه سوف يتصارع معه ذات يوم.

«نعم، كان عمك رجلاً مميزاً» استخلص إسحق. عندما قال هذا تذكر أمراً آخر عن تميّز إسماعيل. «لا تنسى أنه كان أول من خُتِن. لقد سبقني بذلك.» ثم أضاف ضاحكاً: «ليس أنا فقط بل سبقكما أنتما أيضاً في ذلك.»

خطر سؤال في ذهن يعقوب. «بالمناسبة، كيف تفسِّر هذا يا أبي؟ هل يعني هذا أن عمي إسماعيل جزء من العهد الذي أبرمه الله معك ومع جدّي؟»

أرخى عيسو أذنيه ليسمع الإجابة عن هذا السؤال فقد خُتِن هو أيضاً ويريد أن يفهم معنى هذا وعلاقته بيعقوب. حدّق إسحق في الفراغ أمامه باحثاً في ذهنه عن الكلمات المناسبة وفي النهاية كسر الصمت السائد. «هذا سؤال جيد وصعب في ذات الوقت يا بني. فأنا لا أفهم الأمر تماماً لكن بإمكاني رؤية بركة الله على إسماعيل وأعرف أنه سيبارك أبناءه وأحفاده.» ثم استدار إسحق نحو يعقوب: «لدى الله خطة فريدة لك ولنسلك لكن كل من يقبل الختان يمكنه ان يتوقع حضور الله وحمايته.» فيما قال إسحق هذا كان قلقه يتزايد بخصوص التأثير السلبي الذي لزوجات عيسو على ابنه البِكر. فهو يدرك أن ابنه يميل إلى الاعتقاد بأن الختان بحد ذاته كافٍ لتصحيح أموره مع الله. فبرغم أن الختان ضروري كعمل طاعة لله إلا أن هناك المزيد لذلك أضاف: «قبل كل شيء، يطلب منا الله أن نسير معه وأن كل من أحب الله كليّ القدرة من كل قلبه فإنه ينتمي إليه وسيباركه الله بحياة طويلة مثلما فعل مع جدك وعمك إسماعيل.»

«إذن ماذا بالنسبة للخِتان؟» لماذا هو ضروري؟» سأل يعقوب أبيه بفضول.

«يريد الله علاقة شخصية مع كل إنسان على هذه الأرض وقد قال لجدك أن خطته هي أن يبارك جميع الناس على الأرض من خلاله. والخِتان ما هو إلا العلامة الخارجية للتكريس القلبي لله.»

أومأ يعقوب بالفهم أما عيسو فأطلق تنهيدة عميقة وقال: «إرضاء الله ليس سهلاً» فبالنسبة إليه خدمة الله ما هي إلا واجب وليس مصدر سرور. «هناك الكثير من الأشياء التي لا يريدك الله أن تفعلها، لكن الحياة تكون أسهل بكثير إن لم تأخذ الله بالحسبان إلى هذه الدرجة.»

فهم إسحق قلب ابنه المنقسم الأمر الذي أحزن قلبه وصلّى برفق: «يا رب ساعدني لإعادة عيسو إلى المسار الصحيح.» ثم أجاب ابنه متحدِّثاً بشجن: «الغفران يا عيسو. الغفران هو الطريق لقلب نظيف. اغفر لأولئك الذين أساءوا إليك واقبل غفران الله لتعدياتك الشخصية، عندها فقط ستجد السرور في خدمة الله. عمك إسماعيل غفر لجدك

رفضه إياه، وبعد ذلك وجد الفرح في العلاقة المتجددة. بالإضافة إلى ذلك، فإن الله كافأه بالصداقة والمحبة الأخوية التي تشاركنا فيها أنا وهو معاً لمدة طويلة. اتبع مثال عمك وسيكون كل شيء على ما يرام.»

مراجعة

هل لمستك حياة إسماعيل؟ هل تفاجأت أن الله باركه بتلك الطريقة؟

أصبحت يد الله واضحة على حياة إسماعيل منذ اللحظة التي هربت فيها أمه من وجه سيدتها «سارة» وتقابلت مع الغريب قرب بئر في الصحراء. لمس ذلك اللقاء هاجر بعمق جعلها تخضع وتعود إلى تلك التي كانت تسيء معاملتها. لقد صدَّقت وعوده. دعونا نلقي نظرة أخرى على هذا اللقاء المذكور في سفر التكوين الأصحاح ١٦ والأعداد من ٦ إلى ١٢. هناك نجد هذه الأحداث الفريدة:

١. للمرة الأولى في تاريخ البشرية ظهر ملاك الرب, اللذي هو رسول الله.[١٧] مُنِحت هاجر امتياز أن تكون أول إنسان يلتقي بهذا الرسول السماوي الفريد على الإطلاق. لم يحدث هذا خلال ال٢٠٠٠ عاماً السابقة منذ وجود البشرية. خلال العصور فهم آباء الكنيسة ملاك الرب على أنه ظهور للرب يسوع المسيح – كلمة الله – على هيئة إنسان. للمزيد من المعلومات الرجاء مراجعة الموقع التالي
www.godlovesishmael.com/malaak
٢. عدا عن حواء التي كانت مع الله في جنة عدن، كانت هاجر أول امرأة تخاطب الله مباشرة.
٣. كانت هاجر أول امرأة على الأرض تستقبل وعداً من الله. أعطى الله وعداً لحواء أيضاً لكن ذلك حدث فيما كانت لا تزال في الفردوس.
٤. وعد الله هاجر بأن ابنها سيصبح أمة عظيمة. لم يتم إعطاء وعداً ببركة استثنائية مثل هذه لأي امرأة أخرى مباشرة من الله. فقط إبراهيم وإسحق ويعقوب تلقّوا ذات الوعد مباشرة من الله.
٥. أصبح إسماعيل أول إنسان يطلق عليه الله اسمه قبل أن يولد. فقط ثلاثة أشخاص آخرين عبر تاريخ البشرية تلقّوا أسماءهم من الله قبل ميلادهم: أخو إسماعيل غير الشقيق إسحق ويوحنا المعمدان وابن خاله يسوع. انظر
www.godlovesishmael.com/4asma
٦. أعطى الله ابن هاجر اسماً خاصاً. الاسم إسماعيل الذي معناه «الله يسمع» يتضمن وعداً رائعاً ضمن سياق الصلاة. جعل الله نفسه معروفاً على أنه الله الذي سمع صلوات هاجر وإسماعيل.
٧. إسماعيل أصبح «كحمار وحشي.» الحمار الوحشي في الكتاب المقدس يمثل صورة عن الحرية والاستقلالية بعكس الحمير المروّضة التي تخضع لسادتها. لذا حينما دعا الملاك هاجر «جارية سارة» فإنه وعدها بأن إسماعيل لن يكون خادماً وإنما رجلاً حراً.
٨. هاجر كانت أول إنسان يعطي اسماً لله فقد دعته «الله الذي يرى» في إشارة إلى خاصية الرؤية التي لديه بالإضافة إلى خاصية السمع التي جعل نفسه معروفاً لها

١٧ كلمة «ملاك» مُشتقة من الكلمة العبرية «ملاك» والتي تعني مبعوث او رسول.

بواسطتها. تم تدوين ذلك الاسم الذي استخدمته هاجر في الكتاب المقدس مما يدل على مسرة الله بهذا التفاعل معها.

تستحق النقطة السابعة تفسيراً إضافياً.

خلال العصور والأزمنة أعطى دارسو الكتاب المقدس هذه الجملة «إنساناً كحمار وحشي» تفسيراً ذو دلالة سلبية مشيرين «للعرب المتوحّشين.» هذه النظرة أثرت على بعض ترجمات الكتاب المقدس حيث تم تصوير إسماعيل ونسله بطريقة سلبية.[١٨] إلا أن النص الأصلي في التوراة العبرية حيادي.

أيضاً، التعبير «يده على» تشير إلى الجهة الأقوى. بحسب المقطع الكتابي. فلن يملك شعب على إسماعيل وإسماعيل لن يحكم آخرين. وكم كان هذا صحيحاً بالنسبة لشعب البادية في مرامي الصحراء العربية. يبدو أن مجيء الإسلام والروايات عن بدو العرب المتوحشين أثرت بشكل سلبي على تفسير النص الأصلي.

في كتابه «العرب في ظل إسرائيل» يحافظ الباحث اللبناني طوني معلوف بأن القصد وراء كل جزء من النبوءة التي تكلم بها ملاك الرب كان طمأنة هاجر.[١٩] طاعة الأمر بالعودة إلى سارة كان أمراً صعباً، لا يوجد مشير ينصح مستشيراً تعرّض لإساءة بأن «اخضعي نفسك للمسيء إليكِ.» فهل ينهي الله –بعد كل البركات المذكورة سابقاً- رسالته إلى هاجر بلعن تلك الحياة الضعيفة في رحمها؟ ألن يشجعها بوعد ببركة إضافية؟

وضح ملاك الرب حجم إساءة سارة إذ تكلم عن الظلم (تكوين ١٦: ١١). النص العبري يستخدم نفس الكلمة للإشارة إلى الظلم الذي تعرض له شعب إسرائيل على يد الفرعون المصري (خروج ٣: ٧، ١٧)، بالإضافة إلى الألم الشديد التي عانى منه أيوب بسبب الشيطان (أيوب ١٠: ١٥، ٢٠: ١٦، ٢٧).

دراسة مفصلة عن تكوين ١٢:١٦ موجودة على الرابط التالي:

www.godlovesishmael.com/takween16

ينبغي التنويه كذلك بأنه على مدى ثلاثة عشر عاماً عاش إبراهيم وسارة بتوقُّع أن إسماعيل هو ابن الموعد. فلماذا انتظر الله كل هذا الوقت قبل أن يعلن لهم أنه ليس هو؟ هل يمكن أن يكون قد أراد لإسماعيل ونسله أن يدركوا أنه محبوبون كثيراً؟

عندما أعلن الله لإبراهيم أن سارة ستحمل ابناً كان إسماعيل في الثالثة عشر من عمره، أي كان قد أنهى مرحلة الطفولة ويقف على أبواب الشباب «كرجل فتي.» أمضى أغلب سنين الضعف من حياته محبوباً من أبيه الأرضي. لكن حتى بعد ذلك، عندما أصبح معروفاً أنه لم يكن ابن الموعد، بقي محبوباً. الأحداث الفريدة التالية والبركات يمكن تمييزها في حياة إسماعيل.

١. أول صلاة شفاعية مدونة في الكتاب المقدس هي صلاة إبراهيم من أجل إسماعيل. وفوق ذلك فإن الله سمع صلاته!
٢. وعد الله إبراهيم أن إسماعيل سيكون أباً لاثني عشر ابناً. وهذا عدد مساوٍ لعدد الأبناء الذين بارك الله ابن إسحق يعقوب بهم.
٣. سمع الله صوت الشاب إسماعيل عندما كان ممداً للموت. بفعل ذلك، أظهر نفسه على أنه الله الذي يسمع بالتأكيد.

---

١٨ في عدد من الترجمات يكون "إنسانا وحشيا"
١٩ معلوف ٢٠٠٦: ٦٧

٤. استخدمت الجملة «كان الله مع ...» للمرة الأولى في تكوين ٢٠: ١٢. بعد قرون لاحقة، تكلّم النبي إشعياء عن عمانوئيل – الله معنا (إشعياء ٧: ١٤). تلك كانت كلمات مطمئنة لنسل إسحق ويعقوب: شعب إسرائيل. يظهر لنا العهد الجديد تحقق نبوءة إشعياء في شخص يسوع المسيح. عندما ودّع يسوع أتباعه طمأنهم بهذه الكلمات «سأكون معكم دائماً، وإلى نهاية الدهر.»[٢٠] اختبر إسماعيل حضور الله أزمنة عديدة بطريقة واقعية وشخصية.

٥. بحسب تكون ٢٥: ٦، قدّم إبراهيم هدايا لأبنائه من جواريه. اثنتان منهم مذكورتان في الكتاب المقدس: هاجر وقَطُورة. إلا أننا نعرف أن إبراهيم لم يرفض ابنه البِكر للأبد. لقد التقى بإسماعيل قبل موته ومنحه محبته (تكوين ٢١: ١١).

٦. بعد موت أبيهم، أكد إسحق محبته لإسماعيل بأن أعطاه بِئْرِ لَحَيْ رُئِي (تكوين ٢٥: ١١)، المكان ذاته الذي كلّم عنده ملاك الرب هاجر. وبدلاً من البقاء في مَمْرا في بِئْر سَبْع انتقل للاقتراب من إسماعيل.

٧. لا يذكر الكتاب المقدس بالضرورة العمر الذي توفّي فيه كل شخص مهم في الكتاب المقدس. على سبيل المثال: لا يذكر العمر الذي عاشه لوط أو عيسو أو أبناء يعقوب الأحد عشر. من ناحية أخرى، يذكر الكتاب المقدس أن عيسو بلغ المائة والسابعة والثلاثين عاماً من العمر. تدوين طول حياته يشير إلى أن إسماعيل كان شخصاً مهماً في نظر الله. لأننا نعرف أنه عاش حياة طويلة، يمكننا أن نستخلص أن الله باركه وأحبه.

٢٠ متى ٢٨: ٢٠

كل هذه الأحداث المميزة والبركات تعبِّر عن محبة الله له. بالإضافة إلى هذا، يمكن ملاحظة الكثير من الأمور المتشابهة بين حياة إسماعيل وأخيه الأصغر نصف الشقيق.

	الحدث	إسماعيل	إسحق
١	إعلان ولادتهما فوق الطبيعية للأم (من قبل ملاك الله)	تكوين ١٦: ١١	تكوين ١٨: ١٠-١٥
٢	حصلا على اسميهما من قبل الله قبل ولادتهما	تكوين ١٦: ١١	تكوين ١٧: ١٩
٣	خُتِنا	تكوين ١٧: ٢٣	تكوين ٢١: ٤
٤	رُفضا من قبل أبوهما الأرضي بأمر الله	تكوين ١٨: ١٤ أرسل إلى الصحراء	تكوين ٢٢: ٩-١٠ تعرض لتهديد السكين
٥	واجها الموت	تكوين ٢١: ١٦ تحت أكمة (شجيرة)	تكوين ٢٢: ١٠ على المذبح
٦	تقابلا مقابلة شخصية مع ملاك الله	تكوين ٢١: ١٧	تكوين ٢٢: ١١
٧	تدخّل الله وسدّد الاحتياج	الماء (الحي)	الذبيحة (الحية)
٨	دفنا والدهما معاً بدون أبناء قَطورة	تكوين ٢٥: ٩	تكوين ٢٥: ٩
٩	تلقيا وعداً بأن يصبحا أمّة عظيمة	تكوين ١٦: ١٠، ١٧: ٢٠	تكوين ١٧: ١٦، ٢٦: ٢٤
١٠	تباركا من الله	تكوين ١٦: ١١، ١٧: ٢٠	تكوين ٢٥: ١١، ٢٦: ٢٤
١١	والدان لاثني عشرة عشيرة	تكوين ١٧: ٢٠، ٢٥: ١٦ ١٢ ابناً	تكوين ٣٥: ٢٢ب-٢٦ ١٢ ابناً (من يعقوب)

كل هذه التشابهات تشير إلى حقيقة أن أب الإسماعيليين له مكانة خاصة، ليس فقط في تاريخ الكتاب المقدس وإنما في قلب الله.

يمكننا أن نستخلص بالتأكيد ان حياة إسماعيل لم تكن حادثة. فالله سمح لإبراهيم بإنجاب ابن من هاجر. عندما هربت هاجر، لم يتركها تضيع، وإنما تدخّل بشكل هادف. هذا يكشف أن لله خطة لهذا الطفل غير المولود بعد. وبالرغم من أن إسماعيل عرف وهو في الثالثة عشرة من عمره أنه رُفِض كابن الوعد إلا أنه كان محبوباً جداً خاصة من قبل الله وأيضاً من قبل إبراهيم وإسحق.

كيف تطورت العلاقة بين نسلي الأبوان؟ هل استمر الإسماعيليون كمتوحشين؟ هل تشاجروا مع شعب إسرائيل؟ أم أنهم عاشوا معاً بسلام وانسجام؟ سنجيب عن هذه الأسئلة في الجزء التالي من الكتاب.